الفصل الثَّاني

خواطر إيمانيَّة مُقْتَبَسَة من آيات قرآنيَّة وأحاديث نبويَّة

نعرض ضمن هذا الفصل مجموعة من الدُّروس القيِّمة للشَّيخ الفاضل عليّ تابعيّ بن الصَّادق رضي الله عنه تحت عنوان: «**خواطر إيمانيَّة مُقتبسة من آيات قرآنيَّة وأحاديث نبويَّة**»، وهي نفحات ربَّانيَّة تُعبِّر عن فهم ثاقب دقيق لآيات من الذِّكْرِ الحكيم وأحاديث المصطفى ﷺ.

الدَّرس الأوَّل[1]

آياتٌ وعِبَـر من سُورة الكهْف

وما اشتملتْ عليه مِن النَّفائس والدُّرَر

بعد تلاوة عطرة مباركة لأحد المقرئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: 13-16]، قال الشَّيخ الجليل مُرَبِّي المُريدين وقُدوة السَّالكين عليّ تابعيّ بن الصَّادق الحسني الشَّريف ﷺ ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرفِ الأنبياء والمُرسلين وعلىٰ آله وأصحابه وسلّم تسليمًا، **أمَّا بَعْدُ:**

قال القرطبي رحمه الله ونفعنا بعلومه (آمين): «سورة الكهف مكيَّة في قول جميع المُفسِّرين، وروي عن فرقة أنَّ أوَّل السُّورة نزل بالمدينة إلىٰ قوله «جُرُزًا»، والأوَّل أصح».

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل سورة الكهف، ومنها[2]:

---

(1) موضوع «آياتٌ وعبر من سورة الكهف»، درس ألقاه الشَّيخ الجليل عليّ تابعي بزاوية عنّابة.

(2) الحمد لله علىٰ فضله العظيم حيث رتَّب الشَّيخ الجليل عليّ تابعي ﷺ علىٰ مُريديه، قراءة سورة الكهف ليلة الجمعة وفي صبيحتها، وذلك جمعًا لفضلي الحديثين النَّبويين الواردين في السُّطور الموالية تحت رقم 3 و4. (جامع الكتاب).

1- قال رسول الله ﷺ: «**من حفِظ عشر آيات من أوَّل سورة الكهف عُصِمَ من الدَّجَّال**»[1].

وفي مسلم أيضًا من حديث النَّواس بن سمعان: «فمن أدركه (يعني الدَّجال) فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف».

2- قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورة الكهف في يوم الجُمعة أضاء له من النُّور ما بين الجُمعتين**»[2].

3- قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النُّور فيما بينه وبين البيت العتيق**»[3].

في سبب نُزُول سورة الكهف

ذكر ابن إسحاق أنَّ قريشًا بعثوا النَّضر بن الحارث وعقبة بن معيط إلىٰ أحبار يهود وقالوا لهما: سلاهم عن محمَّد وصِفا لهم صفته وأخبراهم بقوله، فإنَّهم أهل الكتاب الأوَّل، وعندهم عِلْمٌ ليس عندنا من عِلْم الأنبياء، فخرجا حتَّىٰ قدِما المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنَّكم أهل التَّوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنَّ، فإن أخبركم بهنَّ فهو نبيٌّ مُرْسَلٌ، وإن لم يفعل فالرَّجل مُتَقوِّل فروا فيه رأيكم، سلوه عن فِتية ذهبوا في الدَّهر الأوَّل ما كان أمرهم، فإنَّه قد كان لهم حديث عجب وسلوه عن رجل طوَّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الرُّوح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتَّبعوه فإنَّه نبيٌّ، وإن لم يفعل فهو رجل متقَوِّل اصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النَّضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط حتَّىٰ قدِما علىٰ قريش فقالا: يا معشر قريش

(1) رواه مسلم وأحمد.

(2) رواه البيهقي في السّنن الكبرىٰ والحاكم في المستدرك.

(3) رواه الدّارمي في مسنده عن أبي سعيد الخدري.

قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمَّد ﷺ قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبيٌّ، وإن لم يفعل فالرَّجل متقَوِّل، فروا فيه رأيكم.

فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمَّد أخبرنا عن فِتية ذهبوا في الدَّهر الأوَّل، قد كانت لهم قصَّة عجب، وعن رجل كان طوَّافًا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الرُّوح ما هي؟ قال: فقال لهم رسول الله ﷺ: «**أخْبِرُكم بما سألتُم عنه غَدًا**»، ولم يستثن[1] فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ فيما يزعمون خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل حتَّىٰ أرجف[2] أهل مكَّة وقالوا: وعدنا محمَّد غدًا، واليوم خمس عشرة ليلة، وقد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء ممَّا سألناه عنه، وحتَّىٰ أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهل مكَّة، ثمّ جاءه جبريل عليه السلام من عند الله ﷻ بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إيَّاه علىٰ حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمْر الفِتية والرَّجل الطوَّاف والرُّوح.

قال ابن إسحاق: فذكِر لي أنَّ رسول الله ﷺ قال لجبريل: لقد احتبستَ عنِّي يا جبريل حتَّىٰ سؤت ظنًّا، فقال له جبريل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: 64].

فافتتح السُّورة (تبارك وتعالىٰ) بحمده وذكر نبوة رسوله لما أنكروه عليه من ذلك فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾.

قال القرطبي في تفسيره لقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 23، 24]، أي لا تقولنَّ لشيء سألوك عنه كما قلتَ في

(1) لم يستثن: أي لم يقل ﷺ إن شاء الله. (جامع الكتاب).

(2) أرجف القوم: خاضوا في الأخبار السَّيِّئة وذكر الفتن، وجاء في لسان العرب: أرجف خفق واضطرب اضطرابًا شديدًا. (جامع الكتاب).

هذا إنِّي مخبر غدًا، واستثن مشيئة الله، واذكر ربَّك إذا نسيتَ وقل: عسىٰ أن يهديني ربِّي لخير ما سألتموني عنه رشدًا، فإنَّك لا تدري ما أنا صانع في ذلك».

إذن لا بدَّ علىٰ الإنسان، إذا أراد المؤمن أن يفعل شيئًا ما عليه أن يقول إن شاء الله، لأنَّه في الحقيقة ليس له من وقته إلاَّ ما هو فيه، ولكنَّ المغرورين والمُغَفَّلِين من النَّاس أولئك هم الذين يعتقدون بأن الوقت لهم وأنَّ أعمارهم طويلة، ويظنُّون أنَّه لم يحن وقت توبتهم ورجوعهم إلىٰ الله، وهم في لهوهم مشغولون، وتلعب بهم الأهواء، وتستهويهم الأماني الكاذبة حتَّىٰ يدركَهم الموت وهم في غفلة عن ربِّهم، وفي حالة شقاء وعذاب، كَذَبَةٌ لا صِدْق لهم، أو منافقين لا عهد ولا دين لهم، فهؤلاء هم المغرورون، والإنسان لا يضمن لنفسه ولو ثانية من عمره، فلو فكَّر أن يفعل شيئًا بعد ثانية لا يمكن أن يتيقَّنَ أنَّه فاعل ذلك، لأنَّ الموت قد تأتيه فجأة، ولذلك فالرَّجل العاقل هو الذي يذكر الموت ولا ينساه.

وقد ورد أنَّ أحد الصحابة رضي الله عنهم قال: يا نبيَّ الله مَن أكْيَسُ النَّاس وأحزمُ النَّاس؟ فقال ﷺ: «**أكثرُهم ذِكْرًا للموت، وأشدُّهم استعدادا للموت قبل نزول الموت، أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدُّنيا وكرامة الآخرة**»[1]، والموت تطلبك وأنت غافل، وتظنُّ أنَّ الله يغفل عنك، ولكنَّ ظنَّك هذا في غير محلِّه، وأنت تحت رقابة الله ﷻ، ومَلَكُ الموت ينظر إليك في كلِّ حين، فإذا تمَّ رزقك وانتهىٰ أجلك يأتيك ليقبض روحك، ولا يتمهَّل في الأمر أبدًا.

إذا عدنا إلىٰ قوله ﷻ لنبيِّه الكريم ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: 23، 24]، فما سِرُّ معاتبة الله ﷻ لحبيبه ورسوله ﷺ؟ وما الفرق بين أنْ يُعاتبَ اللهُ الرَّسولَ ﷺ وبين أن يعاتب غيره؟ ولكي نفرِّق بين مقام النُّبوَّة ومقام غيره من النَّاس نتساءل فنقول: الله تبارك وتعالىٰ حينما يعاتبُ نبيَّه وصفيَّه وحبيبَه ﷺ هل يكون ذلك العتاب لصالحه أم لا؟ طبعًا، فإنَّ

(1) رواه الطّبراني.

الله ﷻ عندما يُعاتبُ النَّبيَّ ﷺ إنَّما يعاتبه معاتبة الحبيب لحبيبه، أي يعاتبه لصالحه كما يعاتب أحدنا ولده الصَّالح المطيع.

فعلىٰ سبيل المثال إذا كان لك ولد صالح مجتهد ومواظب علىٰ دروسه، ويُتعب نفسه في الحرص علىٰ دراسته لدرجة أنَّه يكاد يحرم نفسه من النَّوم، فيدفعك حنانك وعطفك عليه وشفقتك علىٰ حاله إلىٰ أنْ تقول له: ما هذا الحرص الشَّديد علىٰ تحصيل دروسك، أفلا أشفقتَ علىٰ نفسك من الهلاك، فأنت تعاتبه، ولكن هذا العتاب هو في صالحه وليس ضدَّه، وكأنَّك تقول له: لقد فعلتَ ما هو مطلوب منك من الدِّراسة والحفظ، فاترك أمرك لله يفعل فيه ما يريد، وعتاب الله لحبيبه المجتبىٰ ﷺ يكون علىٰ هذا الأساس، وما أحلىٰ عتاب الحبيب لحبيبه.

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ الحقَّ جلَّ جلاله حينما يُعاتبُ نبيَّه الكريم ﷺ لا يعاتبه كما يعاتبُ غيره من النَّاس، لأنَّه يحبُّه وقرن اسمه باسمه وجعل الإيمان مرتبط بذكر اسمه ورسالته، وقد قال الصحابي حسَّان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ:

ألـمْ تَـرَ أنَّ الـلَّـهَ أرسـلَ عَـبْـدَهُ بـبُـرْهَـانِـهِ والـلَّـه أعْـلَـىٰ وأَمْـجَـدُ
وشـقَّ لـه مـن اسـمـه لـيُـجِـلَّـهُ فذو العرْش محمود وهذا محمَّد

وقال أيضًا:

أغـرُّ عـلـيـه لـلـنُّـبـوةِ خـاتـم مـن الـلَّـهِ مَـشْـهُـودٌ يـلـوحُ ويـشْـهَـدُ
وضـمَّ الإلـهُ اسْـمَ الـنَّـبِـيِّ إلـىٰ اسْـمِـه إذ قـال فـي الـخَـمْـسِ الـمُـؤَذِّن أشْـهَـدُ

إنَّ الإيمان بالله ﷻ لن يكمل إلاَّ بالإيمان برسالة النَّبيِّ ﷺ لأنَّك ما دمتَ قد آمنتَ بالله ﷻ ورضيتَ به ربًّا، فلا بدَّ أن تؤمنَ برسوله وترضىٰ برسالته منهجًا، هذا المنهج الرَّبَّانيُّ الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين ليعملوا به بمقتضىٰ إيمانهم، ويتَّخذونه منهاجًا لحياتهم وأمنا واستقرارًا لهم وسببًا لسعادتهم في الدُّنيا وفي الآخرة، ولا سعادة إلاَّ بإتِّباع منهج الإسلام، فإن عدلتَ علىٰ هذا المنهج ولو طرفة عين فقد انحرفتَ عن سبيل ربِّك القويم، وسلكتَ سبيل الغيِّ الذي يوصلك إلىٰ المفاسد والمُهْلِكات التي تبعدك عن باب سيِّدك ومولاك.

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ على المؤمن أن يسعى لِيُقوِّمَ حياته ويقيِّدَها بمنهج الإسلام، ولن يتمَّ له هذا الأمر إلاَّ ببذل الجهد ليتعلَّم عن العلماء، ويزاحمهم بركبتيه، ويتذلَّل على أعتاب أبوابهم ويحترمهم، ويتتلمذ على أيديهم، ولا يرفع نفسه عنهم، لأنَّ من رفع نفسه عن العلماء حرمه الله ﷻ من بركة عِلْمِهم وحجبه عنهم وحجبه عنه، وهذه مصيبة ليس لها نظير.

لقد افتتح الله ﷻ هذه السُّورة الكريمة بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وكأنَّ الله ﷻ يقول للنَّبيِّ ﷺ: أحمد الله ربَّك الذي جعلك عبدًا له، وحقَّق فيك عبوديته، ثُمَّ أنزل عليك الكتاب وجعلك به نبيًّا ورسولاً. وهل هذا الحمد خاصٌّ بالنَّبيِّ ﷺ فقط؟ لا، بل يشمل كلَّ المؤمنين بالله ورسوله، فإذا كان النَّبيُّ ﷺ يحمد الله ﷻ الذي جعله عبدًا له وأقامه في العبودية، وعصمه من أعمال وأحوال الأشقياء، واجتباه واصطفاه، ثمّ أنزل عليه الكتاب وشرَّفه بالنُّبوة والرِّسالة، فنحن يجب علينا أن نحمدَ الله ﷻ مرتين فنحمده أوَّلاً لأنَّه بعث إلينا رسولاً يُبلِّغنا دين الإسلام الذي ارتضاه ربُّنا لعباده، وهذا الأمر يدعونا حقيقة إلى أن نحمدَ الله حمدًا كثيرًا، ونشكره شكرًا جزيلاً، وكذلك ينبغي علينا أن نحمدَ الحقَّ ﷻ مرَّة ثانية على أنَّه أنزل على نبيِّه الكريم ﷺ منهجًا ليعلِّمنا إيَّاه، لأنَّ مداركنا والهيئة التي خلقنا عليها الله تبارك وتعالى لا تُمكِّننا من تلقِّي هذا الكتاب من الله مباشرة، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ خَلَقَهُ الله على هيئة بدنيَّة وروحيَّة يستطيعُ أن يتلقَّى بها الكتاب من سيِّدنا جبريل عليه السلام.

ولذلك نحن نحمد الله تبارك وتعالى على أنَّه بعث إلينا رسولاً وجعله بشرًا من جنسنا، وهذه حيثية أخرى للحمد، فالحيثية الأولى للحمد هي أنَّ الله بعث إلينا رسولاً، والحيثية الثَّانية أنْ كان هذا الرَّسول بشرًا من جنسنا نعرف صفاته وبشريته، ويكلِّمنا بلسان البشرية، وجاءنا بمنهج من عند ربِّنا، وهو الكتاب الذي أُنزل على سيِّدنا ونبيِّنا محمَّد ﷺ، وبلَّغه لنا وعلَّمنا إياه، ولو كان الرَّسولُ ملكًا لتعذَّر علينا أنْ نتعامل معه ونأخذَ عنه.

لقد بعث الله ﷻ النَّبيَّ ﷺ بشيرًا ونذيرًا فقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: 101]، أي أنَّ النَّبيَّ ﷺ أُرْسِلَ ليُنذرَ مَن لا يؤمن بالله وبكتابه بعقاب شديد من لدن الله ﷻ في عاجل الدُّنيا وبعذاب أليم في آجل الآخرة، وكثير من الأمم السَّابقة عجَّل الله لهم العقوبة في الدُّنيا عندما استكبروا وطغوا في الأرض، وذلك ليكونوا مثالا وعِبْرَةً لمن بعدهم من الأمم، ولذا قال الله ﷻ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: 13].

والكثير منَّا عندما يقرًا قصَّة ثمود أو عاد أو غيرهما يظنُّ أنَّ القضيةَ مجرَّد قِصَّةٍ فقط، لا، بل ذلك إنذار وتحذير وعِبرة ووسيلة من وسائل اليقظة لك وللجميع، وكأنَّ الله جلَّ جلاله يقول لك: كن علىٰ حَذَرٍ، وانظر حال من طغىٰ وتكبَّر وتجبَّر ماذا حلَّ بساحته؟ وماذا كان مصيره؟ ومن جهة أخرىٰ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ بعثه الله تبارك وتعالىٰ ليُبَشِّرَ المؤمنين الذين يعملون الصَّالحات بالأجر الحسن والثَّواب الدّائم ودخول الجنَّة في دار الخُلد التي لا يموتون فيها أبدًا، لأنَّ بعد الموت حياة أخرىٰ مُؤَبَّدة، وحياة خلود لا موت فيها، وقد قال الله ﷻ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الدخان: 56].

والدَّار الآخرة تبدأ من قبل الموت عند الاحتضار عندما تتعطَّل حركاتك وتصير ممدودًا، وهنا تشعر حقيقة بمضمون الآية الكريمة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88، 89]، وكأنَّ ملك الموت عندما يقبض روح أحدنا يقول: أين أموالكم؟ وأين أبناؤكم؟ وأين سلطانكم؟ وأين قوَّتكم التي كنتم تستطيلون بها علىٰ النَّاس؟ فاحذروا سطوة ربِّكم وعذابه الأليم الشَّديد، وانظروا كيف آخذ أحدكم من بين أيديكم ولا تستطيعون فعل أي شيء وأنتم تنظرون دهشة عقولكم حائرة أفكاركم، فاعتبروا وكونوا علىٰ حذر شديد، فسيأتي كلَّ واحد منكم الموت، ولن يخطئه أبدًا، فاستعد للقضية جيِّدًا، وعد نفسك قبل أن يُدركك أجلك، ولن ينفعك حينئذ مال ولا بنون ولا سلطان ولا قوَّة، وليس لك من دون الله نصيرًا.

قال القُرطبي في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 4-6]، ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾: «يعني قريشًا في قولهم: إنَّا نعبد الملائكة وهي بنات الله ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْۚ﴾ الذين أعظموا فراقهم وعيب دينهم، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ﴾ أي لقولهم إنَّ الملائكة بنات الله ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجوه منهم، أي لا تفعل».

إذن الحزن علىٰ الأتباع حين يزيغون عن المنهج من طبيعة الأنبياء والعُلماء والصَّالحين الذين يتحسَّرون عندما يرون الفساد في من ينتسبُ إليهم، ويكادون يقتلون أنفسهم حزنًا وكمدًا عليه وهو يلعب كما يلعب الطِّفل، ويلهو كما يلهو الصَّبيُّ، وهم عليه محزونون خوفًا عليه من عذاب النَّار، فالعالِمُ الصَّالح مثلاً لا يحبُّ أن يرىٰ تلميذه يُعذَّب أمامه يوم القيامة في النَّار، ولا يقبل ذلك ويتألَّم بسببه ألمًا شديدًا، ولا يريد أن يراه في داخل المجتمع مُعْوَجًّا وفاسد الطِّباع والأخلاق سيء السُّلوك والمعاملات، وقد لا يشعر التِّلميذ بما يعانيه أستاذه من الأسىٰ والحزن عليه، بل قد يسخر منه، وهذا السَّبب في العقوبة التي تحلُّ بذلك التِّلميذ، والقطيعة عن ربِّه التي تحصل له، وضياع حاله في الدُّنيا وهلاكه في الآخرة، ومن أين أتت هذه القضية للعلماء والصَّالحين؟ إنَّها ميراث من الأنبياء، أليسوا ورثة الأنبياء كما قال الرَّسُول ﷺ: «... **وإنَّ العُلماءَ وَرَثَةُ الأنبياء** ...»[1].

إنَّ العالِمَ الصَّالحَ لا يريد أن يُعلِّمَك فقط، بل يتمنَّىٰ أن تعمل بما تعلَّمْتَه علىٰ يديه، ويُحبُّ أن تتَّبعه وتسلكَ طريقه، وأنْ تسيرَ علىٰ المنهج الرَّبَّانيِّ، وكلَّما كنتَ مستقيمًا علىٰ منهج ربِّك كان فرحًا مسرورًا يودُّ أنْ يجعلَك في صميم قلبه،

(1) رواه التِّرمذي وأبو داود وأحمد وغيرهم.

وبالمقابل إذا رآك حُدْتَ عن الشَّريعة، وابتعدتَ عن سلوك الطَّريق القويم، وفسدتْ أخلاقُك وساءتْ سيرتُك ومعاملاتُك، فإنَّه يتكدَّر حالُه، ويحزنُ قلبه كمدًا وحسرة علىٰ حالك وأنت لا تشعر بكلِّ ذلك، وهل تظنُّ أنَّ الله ﷻ لن يُحاسبَك علىٰ حالك هذه؟ لا، فستُحَاسبُ علىٰ كلِّ ذلك، ولن تنجو من العقاب.

وانظر إلىٰ حال الإمامِ يوم الجُمعة وهو قائم يخطبُ في النَّاس، ويتلو عليهم آيات الله، ويقرًا علىٰ مسامعهم أحاديث رسول الله ﷺ والنَّاس أحدهم يغطُّ في نومه، والآخر لا يفقه ما يسمع ولا يعي شيئًا منه، ولماذا الإمام يتكلَّم ولا قلوب واعية، ولا آذان صاغية، ولا عقول تفكِّر، وكأنَّ الكثير مستغنون عن كلام ربِّهم، ولا يحبُّون سماع أحاديث النَّبيِّ ﷺ؟ وما الذي أذهب العقول وألهاها؟ لقد ألهاها التَّكاثر، وقد قال الحقُّ ﷻ: «﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: 1، 2].

فالتَّكاثر هو الذي يُشغلنا عن طلب العِلْم وعن إتِّباع المنهج الرَّبَّانيِّ وتطبيقه، وعن الحرص علىٰ السَّير وُفْقَهُ، ونحن نريد أنْ نُكثِرَ من الأموال والأولاد، ومقاصد الأكثرية من ذلك شيطانيٌّ لا ربَّانيٌّ، فلماذا يريد أكثرنا المال؟ ذلك لحبِّ التَّفاخر والتَّباهي وعلوِّ الشأن، وهل يعلو الشَّأن بالمال؟ لا، فإنَّ المال لا يُعْلِي شأن أحد، ونحن نظنُّ بأنَّ العِزَّ في المال والجاه، ونعتقد أنَّ الأولاد هم مصدر قوَّتنا وهم عصبتنا، وهذه أمور لا تصِّح أبدًا، وكلام لا يُعقل إطلاقًا، فمن أراد العِزَّ الحقيقيَّ فليعتز بربِّه فهو الذي يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26].

فإن كنتَ في معيَّة الله فلن يستطيع أحد أنْ يؤذيك أو يمسَّك بسوء أبدًا، وإن انفردتَ بنفْسك، واعتمدتَ علىٰ مالك وولدك، وابتعدت عن ربِّك، فستصبح فريسة للجميع، لأنَّك أبَيْتَ ولم تُرِدْ أن تكون داخلا في عِناية سيِّدك ومولاك، وتصبح القضيَّةُ قضيَّة بشر مع بشر، وقضية مخلوق مع مخلوق، والغلبة للقويِّ، وأمَّا إذا التجأتَ لربِّك وكنتَ في معيَّته فمن يجرؤ علىٰ الله القويِّ الغالب علىٰ

أمره؟! وهذا ما قاله النَّبيُّ ﷺ لأبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه كما جاء في القرآن الكريم: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: 40]، وعن أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه قال: قلت للنَّبيِّ ﷺ وأنا في الغار: لو أنَّ أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: «ما ظنُّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»[1].

وقد رأيتُ غار ثور ودخلتُ إليه وعاينتُ حقيقة ما قاله سيِّدنا أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وتأكدتُ فِعلا بأنَّه لو نظر أحدٌ تحت قدميه لأبصر ما في داخل الغار، وكأنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول لسيِّدنا أبي بكر الصِّدِّيق بمقالته السَّابقة: نحن هاجرنا إلىٰ الله وبأمر منه، فلا تحزن فنحن في معيَّة ربِّنا، وقد كان قول أبي بكر السَّابق للنَّبيِّ ﷺ لشدَّة خوفه عليه، وهذا يعلِّمنا كيف يتأدَّب التِّلميذ مع أستاذه، فقد دخل أبو بكر الغار قبل رسول الله ﷺ، وسدَّ كلَّ ما فيه من منافذ وجحر إلاَّ جحرًا واحدًا لم يجد ما يسدُّه به، فوضع عليه قدمه، وتوسَّد النَّبيُّ ركبة صاحبه أبي بكر ونام.

وانظروا لو رأينا نحن أستاذا يتوسَّد ركبة تلميذه لقلنا لذلك التِّلميذ: أنتَ تعتقد في أستاذك الرُّبوبيَّة وتعبده، ونقيم عليه القيامة، لأنَّنا جهلة لا نعرف قيمة الأشياء، وقد لدغتْ عقرب قدم أبي بكر فلم يُحرِّك ساكنًا خشية أن يستيقظ رسول الله ﷺ الذي بقي نائمًا حتَّىٰ سقطتْ دمعة حارَّة من عين أبي بكر بسبب الأذىٰ الذي لحقه من تلك اللَّدغة، فقال لأبي بكر: ما بالك يا أبا بكر؟ فقال: لدغتني عقرب يا رسول الله، فمسح النَّبيُّ الكريم ﷺ بريقه الزَّكيِّ الطيِّب موضع الأذىٰ، فشُفِيَ أبو بكر من حينه، وهل هذه خرافة؟ وانظروا كيف يلعبُ بالدِّين مَن يُنكرون التَّبرُّك بالنَّبيِّ ﷺ وبآثاره وبالصَّالحين، وقد قيل أنَّ الله ﷻ أنطق العقرب فقالت لأبي بكر: لقد حجبتني عن رؤية وجه رسول الله ولذلك لدغتُك[2].

(1) رواه البخاري ومسلم والتِّرمذي وأحمد وغيرهم.

(2) وهنا يبتسمُ الشَّيخُ الجليل. (جامع الكتاب ومدوّنه).

وممَّا سبقَ يتبيَّن لنا الأدب الكبير الذي كان يتَّصف به أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وكيف كان يُؤْثِرُ رسولَ الله ﷺ بمُهجته علىٰ نفسه، وقد كان الصَّحابة الكِرام (رضي الله عنهم جميعًا) يؤْثِرون بعضهم بعضًا، وقد وقعتْ قضايا من هذا النَّوع في جهاد المُسلمين، فقد جاء في تفسير القرطبي: «قال حذيفة العدوي: انطلقتُ يوم اليرموك أطلبُ ابن عمٍّ لي ومعي شيء من ماء وأنا أقول: إن كان به رمق سقيتُه، فإذا أنا به فقلتُ: أسقيك؟ فأشار إليَّ أن نعم، فإذا رجل يقول: آه، آه، فأشار ابن عمِّي إليَّ أن انطلق به إليه، فجئته فإذا هو هشام بن العاص فقلت: أسقيك؟ فأشار إليَّ أن نعم، فسمع به آخر فقال: آه، آه، فأشار هشام أن انطلق به إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعتُ إلىٰ هشام فإذا هو قد مات، فرجعتُ إلىٰ ابن عمِّي فإذا هو قد مات (رحمة الله عليهم جميعًا).

ألا ترىٰ الإيثار والفضائل والخِصال الحميدة التي اتَّصف بها أوائل المُسلِمين؟ فمن أين استمدُّوا تلك الأخلاق الكريمة التي تميَّزوا بها؟ لقد استمدُّوها من الدِّين حين استقبلوا القرآن الكريم والحديث الشَّريف بتصديق وصِدق، وتعظيم واحترام، وهكذا كان شأنُهم، وأمَّا الذي يستقبل القرآن والحديث بغباء وسخرية واستهزاء وقلة تعظيم وبدون احترام، فإنَّه يُحْرَمُ من السِّرِّ اللَّطيف، ولا يمنحه الله تبارك وتعالىٰ إيَّاه، وقد يظنُّ نفْسَه أنَّه ذكيٌّ وفَطِنٌ، ولكنَّ الحقيقة أنَّ الله ﷻ قد أهانه وردَّه علىٰ عقبيه إلىٰ إسطبل الدَّواب التي لا تعرف فيه إلاَّ النَّوم والأكل والشَّراب.

قال القرطبي في تفسير قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6]: «لحُزنه عليهم حين فاته ما كان يرجوه منهم، أي لا تفعل، وقال ابن هشام: باخع نفسه أي مهلك نفسه، وقول العرب: قد بَخَعْتُ له نصحي ونفسي: أي جهدت له».

ومن باب آخر أنَّ الله ﷻ لا يرضىٰ للنَّبيِّ ﷺ ومن هم علىٰ أثره من الصَّالحين والعلماء بأن يردُّوا وجوه قلوبهم إلىٰ الخَلْقِ إلاَّ بقَدْرِ تبليغ الكلمة الطَّيِّبة والنُّصح للمؤمنين فقط، ويجب أن يعودوا بعدها إلىٰ الله، لأنَّه لا يريد منهم أن

يكونوا في غير معيَّته، أليس الله تبارك وتعالىٰ وليَّ الذين آمنوا يُخرجهم من الظُّلمات إلىٰ النُّور؟ بلىٰ، فإنَّ الحقَّ ﷻ يقول: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257].

والإنسان إذا أراد أن يمتحنَ إيمانه فلينظر إلىٰ نفْسِه وليتساءل هل هو من الذين آمنوا ويخرجهم الله من الظُّلمات إلىٰ النُّور أم لا؟ والمفروض أنْ يكون هذا امتحان لإيمان كلِّ مؤمن، فعلامة المؤمن إخراج الحقِّ ﷻ له من الظُّلمات إلىٰ النُّور في كلِّ وقتٍ وحين، وما هي الظُّلمات؟ إنَّ كلَّ ما يخالفُ منهج الله ظلمات علىٰ إطلاقه، وكلُّ ما هو من المنهج في أقوالك وأفعالك وحركاتك ومعاملاتك فهو نور تهتدي به إلىٰ سبيل ربِّك، فإذا كنتَ لا تشعر بأنَّ الحقَّ ﷻ يُخرجك من الظُّلمات إلىٰ النُّور، فإنَّك لا شكَّ مُعْرِضٌ عنه، وقد تولاَّك ولكنَّك لم تُقبِلْ عليه، وعندما تُدبر عن ربِّك فإنّه يكِلُك إلىٰ نفسك وتكون من الهالكين، وأنت تظنُّ في نفسك أنَّك من المهتدين، ولكنَّك في الحقيقة بعيد عن الهِداية منشغل بأموالك وأولادك عن سيِّدك ومولاك.

والمال والولد والدُّور والبساتين والمتاع عطايا من الله ﷻ قد أعطاها حتَّىٰ للكفَّار واليهود والنَّصارىٰ والمجوس، فهل هذه العطايا دليل علىٰ محبَّة الله تبارك وتعالىٰ لهؤلاء النَّاس؟ لا، بل هذا الإنعام من باب الاستدراج الذي ظاهره إنعام وباطنه هلاك ودمار، ولذلك ينبغي لك أن لا تغترَّ بالمال والولد وهذه الأمور، لأنَّه يشترك فيها معك كلٌّ من الكفار وعبَّاد الشَّمس وعبَّاد النَّار وغيرهم، وما الفرق بينك وبين هؤلاء؟ لقد فارقتهم عندما قلت: ربِّي الله وديني الإسلام، ومنهجي في الحياة كتاب الله القرآن الكريم ورسول الله ﷺ قدوتي، بهديه أهتدي وبسنَّته الطَّاهرة أتمسَّك، وأقتفي آثاره وأتّبع خطاه، وأسير علىٰ نهجه القويم وطريقه المستقيم.

إذن يجب عليك أن تكونَ في دنياك وفي آخرتك سائرًا علىٰ المنهج الرَّبَّانيِّ، ولا تحيد عنه ولو لحظة واحدة، ولن يتأتَّىٰ لك هذا الأمر إلاَّ بتعلُّم العِلم

الضَّروري والعمل به، وتكدُّ وتجدُّ، وتجاهدُ نفسك وتغالبها، وتسعىٰ لتزكيتها وتطهيرها من الصِّفات الذَّميمة وتحليتها بالصِّفات الحميدة، وكلُّ ذلك يَتِمُّ بالتَّمسُّك بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ الذي كان حريصًا علىٰ هدايتنا، وكان بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا مصداقًا لقول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

والحِرْصُ الشَّديد علىٰ الأتْباع من طبيعة الأنبياء والرُّسل (عليهم الصَّلاة والسَّلام) ومن يسيرُ علىٰ هداهم من الصَّالحين ومن العلماء المُخلِصين الصَّادقين، فإذا حصل زيغ أو ميل عن الصِّراط المستقيم والمنَّهج القويم من الأتباع والمُريدين، فإنَّ أهل الله ﷻ من أولئك الأنبياء والرُّسل والصَّالحين والعُلماء العاملين الصَّادقين المُخلصين يتأثرون أيَّما تأثُّر، ويملأ قلوبَهم الحزنُ والهمُّ، وفي هذه الحالة يُعَدُّ المُتَسبِّبُ من الأتباع والتَّلاميذ في ذلك عاقًّا لآبائه الرُّوحيِّين، كما أنَّك عندما تعقُّ أباك البدني يغضبُ عليك هذا الأب وينزعج بسبب ذلك، وتتعرَّض لعقاب من الله، وتُعَدُّ من العاقِّين لآبائهم، وتُحجبُ دعوتُك، ولا يُقبل عملك وتخسر خسارة لا مثل لها -والعياذ بالله- فكذلك الأمر إذا تسبَّبتَ لآبائك الرُّوحيِّين في جلب همٍّ أو حزن، والآباء الرُّوحيون لا يحزنون إلاَّ عندما يرونك قد حُدْتَ عن منهج ربِّك أو انحرفتَ عن شريعة مولاك، أو تركتَ طلب العلم وأهملتَ الذِّكْر وفعل الخيرات، وقد تكون أنت مرتاح البال والفِكر، ولا تشعر بحزن أهل الله عليك وتفكيرهم فيك وانشغالهم بإصلاح حالك.

وممَّا سبق بيانه يتَّضح لنا أنَّ أهل الله يحرصون علينا حرصًا شديدًا من أجل استقامتنا مع المنهج الرَّبَّانيِّ، ويبذلون كلَّ مجهوداتهم لتطهير قلوبنا وتزكية أنفسنا وإصلاح أحوالنا، وقد يقول من لا يعرف حقيقة العلاقة بين الشَّيخ المُربِّي ومريده في نفْسه: إنَّ القضية تخصُّني لوحدي، ولماذا يتدخَّل الشَّيخ في شؤوني؟ وهذا كلام غير صحيح، فإنَّ قضية المُريد لا تخصُّه لوحده، بل تخصُّ شيخه المُربِّي كذلك، لأنَّ الشَّيخ يعتبرك ويعدُّك نسخة منه، ويتأثَّر بكلِّ ما يطرًا عليك، وبالتَّالي

عليك أن لا تكونَ سببًا في حزن قلبه واغتمامه عليك، فإن فعلتَ ذلك كُتِبْتَ عند الله من العاقِّين، ويأخذك الحقُّ جلَّ جلالُه مأخذ العاقِّين، وهذه القضيَّة ليست من القضايا السَّهلة، ولهذا قال الله سبحانه للنَّبيِّ ﷺ مُسَلِّيًا له: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6].

قال القرطبي في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7]: «فيه مسألتان:

الأولىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾، الزِّينة كلُّ ما علىٰ وجه الأرض فهو عموم، لأنَّه دالٌّ علىٰ بارئه، وقال ابن جُبير عن ابن عبَّاس: أراد بالزِّينة الرِّجال، وروىٰ عكرمة عن ابن عبَّاس: أنَّ الزِّينةَ الخلفاءُ والأمراءُ، وروىٰ ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ قال: العلماء زينة الأرض، وقالت فِرقة: أراد النِّعم والملابس والثِّمار والخضرة والمياه ونحو هذا ممَّا فيه زينة، ولم يدخل فيه الجبال الصُّمّ وكلّ ما لا زينة فيه كالحيَّات والعقارب، والآية بسط في التَّسلية، أي لا تهتم يا محمَّد للدُّنيا وأهلها، فإنَّا إنَّما جعلنا ذلك امتحانا واختبارًا لأهلها، فمنهم من يتدبَّر ويؤمن، ومنهم من يكفر.

الثَّانية: معنىٰ هذه الآية ينظر إلىٰ قول النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ الدُّنيا حلوةٌ خضرةٌ، وإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُم فيها فينظر كيف تعملون، فاتَّقوا الدُّنيا واتقوا النِّساءَ، فإنَّ أوَّلَ فتنةِ بني إسرائيل كانتْ في النِّساء**»[1].

هل معنىٰ فانظروا كيف تعملون؟ تعلَّقوا بالدُّنيا واهتموا بها؟ لا، بل معناها أنظروا كيف تكونون في دنياكم مع الله ﷻ، ولا تغرنَّكم خضرتها ولا حلوها، وكونوا مع خالقكم الذي استخلفكم فيها، وهو المُعطي المانع، فإن الْتَفَتُّمْ إلىٰ الدُّنيا فإنها لا تعطيكم نفْسها ولا تمنعكم، فلا تَغُرَّنَّكم ولا تميلوا إليها، فهي بيد

(1) رواه مُسلم والتِّرمذي وابن ماجه، واللفظ لمسلم.

الله وفي قبضته يُعطيها لمن يشاء ويُحرِم منها من يشاء، فعليكم أن لا تغتمُّوا من أجل الدُّنيا، وقد قال النَّبيُّ ﷺ في الحديث الشَّريف: «**مَن أصبحَ منكُم آمنا في سِرْبِه، مُعَافىٰ في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حِيزَتْ له الدُّنيا**»[1]، ولكن نحن ليس لنا ثقة في ربِّنا، وهذا بسبب عدم يقيننا بأنَّ الرِّزقَ من عند الله، والمفروض أنَّك إذا كنتَ وأهلك في أمْنٍ، وتملكُ قوت يومك فقد أعطاك الله كلَّ ما تريدُ من الدُّنيا، وعليك أنْ تشكره وتسبِّح بحمده، وأمَّا الغد ليس هو لك، وإذا كان الغد لك فسيأتيك رزقك لا محالة، وقد جاء في حديث قدسيٍّ عن ربِّ العِزَّة: «**... يا ابن آدم خلقْتُك مِن تُراب ثمّ من نُطفة ولم يُعيِّيني خَلْقُك، أفيعيِّيني رغيف خُبْزٍ أسوقُه إليك.**

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**أخْوَفُ ما أخافُ عليكم ما يُخْرجُ اللهُ لكم من زهرة الدُّنيا، قالوا: وما زهرة الدُّنيا يا رسول الله؟ قال: بركات الأرض ...**»[2]، ولقد حذَّرنا الله ﷻ من انشغالنا بأموالنا وأولادنا عن ذِكْرِهِ فقال عزَّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [**المنافقون: 9**]، وهل المقصود بذِكْرِ الله في هذه الآية هو التَّسبيح والتَّحميد والتَّهليل فقط؟ لا، وإنَّما معنىٰ قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي لا تشغلكم الأموال والأولاد عن كتاب الله المجيد وشريعته السَّمحة، وعن الوقوف مع حدود الله واجتناب نواهيه، وهذا معنىٰ ذِكْر الله علىٰ عمومه.

ولذا يجب علينا أنْ لا تشغلنا أموالنا وأولادنا عن تطبيق شريعة الله في حياتنا وفي حياة مَن هم تحت رعايتنا، وقد قلنا سابقًا أنَّ اللهَ ﷻ جعل سيِّدنا آدم عليه السلام نبيًّا ورسولاً لذُرِّيَّته ليبلِّغهم المنهج الرَّبَّانيَّ، وفي هذا تنبيه من الحقِّ لكل الآدميِّين علىٰ أنَّ الواجب علىٰ كلِّ واحد منهم أن يتعلَّمَ منهج الله، ويُعَلِّمَه لأولاده وأهله

(1) رواه التِّرمذي وابن ماجه والطَّبراني وغيرهم.

(2) رواه مُسلم.

وكلٍّ من هو تحت مسؤوليته، ولو فعلنا ذلك لما احتجنا لأنبياء بعد آدم عليه السلام، ولكنَّنا لم نقم بواجبنا المناط بنا، وضيَّعنا القضيَّة، فأصبح كلَّما عمَّتِ الفوضىٰ ودبَّ الفساد، وانتشر الظُّلم والبغي، وعمَّ الطُّغيان والتَّعدِّي، بعث اللهُ ﷻ رسولاً يُنقذُ الْخَلْقَ من هذه الكوارث، ويعود بهم إلىٰ صفاء الاعتقاد وإتِّباع شرْع الله ومنهجه.

إذن في الأصل أنَّ من عهد آدم عليه السلام كلُّ فرد سواء كان أبا أو أمًّا هو مسؤول عن تعليم شريعة الله ومنهجه لمن هم تحت رعايته، ولكن الكثيرَ منَّا لا يُدرك مسؤوليته هذه، وكلُّ ما يهمُّه أن يُوفِّرَ لأولاده ولأهله ما يحتاجونه من متاع الدُّنيا وزخارفها، وأمَّا الجانب الرُّوحي فلا اهتمام به بتاتًا، ومن يفعل ذلك فهو دليل علىٰ أنَّه لا شعور له بالدِّين إطلاقًا، ولا يُفَكِّر فيه أبدًا، وبعد هذا يلوم غيره عند فساد أولاده، والحقيقة أنَّه هو الذي يتحمَّلُ نتيجة عدم تربيته لأولاده، لأنَّه لم يبدأ الرِّحلة في تربيتهم من الميلاد إلىٰ البلوغ، ولم يُعلِّمهم أوامر الله ونواهيه، وبهذا يكون قد خالف ربَّه، ووافق ابنه علىٰ الفساد.

إنَّ في قول الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7]، إشارة إلىٰ أنَّه ابتلىٰ عباده بالدّنيا وزينتها وزخرفها لينظر أيُّهم أحسن عملاً.

وقال القرطبي في قوله ﷻ: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ «مَن أزهد فيها وأترك لها».

وقد قال ﷻ في آية أخرىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2]، أيّ أنَّ الرِّحلة بين الحياة والموت هي رحلة امتحان واختبار يخسر فيها أقوام ويربح آخرون، فالذين أخلصوا نفوسهم لله وخلَّصوها من جميع الشَّوائب والعلائق والعوائق قد نجحوا في الامتحان وفازوا فوزًا عظيمًا، وأمَّا الذين انغمسوا في الشَّهوات وتعلَّقوا بحظوظهم ولم يزكُّوا أنفسهم فأولئك هم الخاسرون -والعياذ بالله- وقد قلنا مرارًا أنَّ الزُّهد ليس هو عدم العمل، ولكنَّ الزُّهدَ أنْ تعملَ لدنياك

وتجعلها في يدك ولا تجعلها في قلبك، لأنَّك إنْ جعلتَها في قلبك تصبحُ معبودًا لك من دون الله ﷻ، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**تَعِسَ عبدُ الدِّينار والدِّرهمِ والقطيفة[1] والخميصة[2]، إنْ أُعطِيَ رضي، وإن لم يُعْطَ لم يَرْضَ**»[3].

إذا أخرجتَ حبَّ الدُّنيا من قلبك وجعلتَها في يدك تنفق منها في أبواب الخير، فقد طبَّقتَ أمر الله ﷻ الذي يقول: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [**الحديد**: 7]، وكأنَّ الحقَّ ﷻ يقول لك: أنفق من مالي الذي جعلتُك فيه مُستَخْلَفًا وعليَّ أن أعينَك، ولقد كتبتُ لك رزقك وأجلك، وحدَّدتُ لك مواعد رزقك وأسبابه، فلا تخف من فوات رزقك أبدًا، وكن علىٰ يقين من هذا الأمر، وقد قال أحد الصَّالحين: «عَجِبْتُ من ابن آدم في رزقه حائر، والرِّزق في طلبه دائر»، فالمرء يخاف من رزقه ومهموم من أجله، والرِّزق يتبعه كظلِّه حيثما دار يدور معه.

إذن أنت ما دمتَ مُقبِلا علىٰ الله ﷻ فرزقُك في طلبك، فإذا أقبلتَ علىٰ الرِّزق فإنَّه يفرُّ منك كما يفرُّ منك ظلُّك إذا التفتَ إليه وحاولتَ أنْ تُمسِكَ به، فعلىٰ العاقل أنْ يُقبِلَ بكلِّيته علىٰ مولاه، ويزهد في دنياه، وقد يظنُّ البعض أنَّنا نحن الذين نُزَهِّدُ النَّاسَ في الدُّنيا، ولكنَّ الحقيقة أنَّ القرآن الكريم يرغِّبنا في الآخرة ويزهِّدنا في الدُّنيا، وقد قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [**فاطر**: 5]، ونحن عندما نرغِّب النَّاس في الإقبال علىٰ ربِّهم والزُّهد في دنياهم فإنَّنا بذلك لا ندعوهم إلىٰ الكسل وترك العمل، بل بالعكس نحثُّهم علىٰ صِدق النِّيَّة في العمل وبذل الجهد والإخلاص والصِّدق فيه، ولكن بشرط أن لا يكون ذلك علىٰ حساب أداء الفرائض والواجبات، لأنَّ هذا الأمر غير مقبول.

---

(1) **القطيفة**: كساء له خمل.

(2) **الخميصة**: كساء أسود مربع له عَلَمَان، فإن لم يكن معلَّمًا فليس بخميصة. (جامع الكتاب عن: لسان العرب لابن منظور).

(3) رواه البخاري وابن ماجه والبيهقي واللَّفظ للبخاري.

وعندما نقول للنَّاس: ازهدوا في الدُّنيا، فكأنَّنا نقول لهم: أخرجوها من قلوبكم ولا تعلِّقوا هِمَمَكُم بها وكونوا علىٰ ثقة كبيرة ويقين تامٍّ بالحقِّ ﷻ، وقد جاء في الأثر: «ليس الزُّهدُ بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال، إنَّما الزُّهد أن تكونَ بما في يد الله أوثقَ ممَّا في يدك»، أي أن تكون واثقًا بالله بحيث يكون الذي في عالم الغيب هو أقرب إليك ممَّا هو بين يديك، وهذا هو الزُّهد الحقيقيُّ، لأنَّ رغبتك في الدُّنيا ناشئة عن عدم ثقتك في ربِّك واعتمادك علىٰ ما بين يديك، ولكن هذا الذي بين يديك من أعطاه لك؟ ومن أسداه إليك؟ أليس هو الله؟ بلىٰ، وعندما تعود إلىٰ صوابك تُقِرُّ بأنَّ الله هو الذي أمدَّك بذلك وهو الذي أسداه إليك، وما دام الأمر كذلك، فلماذا تغفل عن سيِّدك ومولاك الكريم؟ أليس هو الرزَّاق ذو القوَّة المتين، أم أنَّك أنت الرزَّاق؟ ولذلك نحن نقترف الذُّنوب ونتجرَّا علىٰ المعاصي ونقول: الله غفور رحيم.

وأمَّا إذا جئنا لقضيَّة الرِّزق فنجتهد في طلب الحصول عليه بالجهد الجهيد، وكأنَّنا نحن الذين سنرزق أنفسنا، ولا رجاء لنا في الله في قضيَّة الرِّزق، فلدينا ثقة في الله بأنَّه غفور رحيم، ولكن لا ثقة لنا في أنَّه هو الرزَّاق، وكان المفروض أن نكونَ علىٰ ثقة تامَّة من أنَّ الله ﷻ رزَّاق كما أنَّه غفور رحيم.

قال القرطبي: «... وقد اختلفتْ عبارات العلماء في الزُّهد، فقال قوم: قصر الأمل وليس بأكل الخشن ولبس العباء، قاله سفيان الثَّوري، قال علماؤنا: «وصدق رضي الله عنه، لأنَّ مَن قصُرَ أمله لم يتأنَّق في المطعومات، ولا يتفنَّن في الملبوسات، وأخذ من الدُّنيا ما تيسَّر، واجتزأ منها بما يبلغ».

لو أنَّ أحدًا جاءته رسالة مفادها أنَّه سيموت بعد شهرين مثلاً، فإنَّه ينسىٰ الأكل واللِّباس والمُلك، وينسىٰ كلَّ شيء، ولا ينتظر إلاَّ الموت، ويحرِص علىٰ إعداد نفْسه لها، لأنَّه أصبح علىٰ يقين تامٍّ من الموت، ولكنَّ الله ﷻ قال للنَّبيِّ ﷺ ولك: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]، فلماذا لا تستمع إليه؟ ولماذا لا تتيقَّن بأنَّك ميِّت، وأنَّ الموتَ آتيك لا محالة؟! ولا بدَّ لك من ذلك، ولا تدري

متىٰ يُدركك أجلك، وقد أخبرك الحقُّ ﷻ بذلك في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: 61]، أي أنَّ الموت تأتيك فجأة، ونحن تمرُّ علينا هذه الأمور والحوادث يوميًّا، ولكن لا قلوب تعي ولا آذان تسمع، لخلو هذه القلوب من الإيمان الحيِّ، الإيمان المتحرِّك والفائض علىٰ الجوارح، والذي يظهر في تصرُّفات الإنسان وفي سلوكه وأعماله عزمًا وإرادة وصدقًا وأمانة ووفاء بالعهد، وهذه هي حقيقة الإيمان، لأنَّ الإيمان سلوك.

وإذا لم يظهر الإيمان في السُّلوك فهو إيمان ميِّت ليس فيه حياة، لأنَّ من طبيعة الحي أنَّه يتحرَّك، وإن لم يظهر الإيمان في سلوكك بأخلاق وأقوال وأعمال وأحوال وعبادات ومعاملات توافقُ هذا الإيمان، فإنَّ في إيمانك خللاً، فحاول بجدٍّ أن تُصلِحَ هذا الخلل، وابْكِ علىٰ نفْسك وتضرَّع إلىٰ الله ﷻ بالبكاء والخشوع والدُّعاء، وملازمة الصَّلاة، وملازمة مجالس الذِّكْر، والاعتناء بمجالس الصَّالحين، والتَّذلُّل علىٰ أعتابهم، والتَّفاني في خدمتهم، لعلَّ الله ﷻ وهو الكريم يشملك بعنايته، ويُصيبك بنفحة من نفحاته، ويأخذك إلىٰ التَّوفيق والهداية.

إذن كُنْ عاقلاً كيِّسًا فطِنًا، واعملْ علىٰ تزكية نفْسِك وتطهيرها من الرَّذائل والصِّفات المذمومة وتحليتها بالفضائل والصِّفات المحمودة، لأنَّ كلَّ ما أنتَ فيه يُذَكِّرُكَ بالله ويدلُّك عليه، ويُعرِّفك به، ويدفعك إلىٰ محبَّته وإلىٰ إقامة نفْسِك في عبوديته، فلا تكنْ من الغافلين عنه، تأكل خيره وتعبد غيره، وفي استطاعتك أنْ تكونَ في معيَّة الله ﷻ علىٰ الدَّوام، ولكنَّ نفْسَكَ قد تقولُ لك: ما دمتَ في عملك فلا تشتغل بربِّك وكن عنه لاهيًا، فلا تعبأ بكلامها وقل لها: يا نفْس مَن وضع لكِ هذه الأرض وهيَّأها لتنتشرين فيها؟ ومن وضع لك هذه المؤسَّسة التي تعملين فيها؟ ومن سخَّرَ لكِ هؤلاء الذين تشتغلين معهم؟ إنَّ كلَّ هؤلاء هم خلْقُ الله وهبهم وسخَّرهم لك، فكيف تغفل بهم عنه؟ أيُّ خبث هذا؟ وأيُّ بليِّة هذه؟ ألم يُسخِّرْ اللهُ ﷻ عباده لخدمتك؟ ألم يقل الحقُّ ﷻ في كتابه الكريم: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: 32]، وهذا كلُّه من باب التَّسخير.

وقد خلقَ الحقُّ ﷻ لك أرضًا، وجعل لك فيها مصنعًا أو إدارة، فذلك مصنعه وتلك إدارته، فأفِقْ من غفلتك، واجعل هذه الأشياء كلَّها وسائل تنبِّهك بأنَّ تلك العطاءات التي أنت فيها إكراميات من الحقِّ ﷻ، فكن معه في كلِّ الحالات مُخلِصًا صادقًا في عملك مُتقِنا له ابتغاء مرضاته، ولا تطلبْ به إلاَّ وجهه الكريم، واصدق في عملك هذا لله، لأنَّ الله ﷻ هو الذي أمرك بهذا، وليس مديرُ المصنع أو المؤسَّسة هو الآمر لك، بل الله ﷻ هو الذي يديرُ الإدارة الكبرىٰ ويُسَيِّرها، والكلُّ تحت سيطرته وسطوته، ألم يقل الحقُّ جلَّ جلاله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: 22].

وما دام الله هو الذي يُسيِّرك في البَرِّ والبحر ولا وجود لغيره، فلماذا تغفل عنه؟ وكلُّ شيء يُذكِّرك به ويدلُّك عليه، ويُعرِّفك به ويزيدك حبًّا فيه، والسَّبب في غفلتك عن مولاك وقوفك مع مادِّيتك، ولأنَّك وضعتَ قلبَك في هذه المادِّية التي هي بدنك، ولكن هل لهذا البدن قوَّة أو حركة أو تصرُّف في الحياة؟ لا، ليس له شيء من كلِّ هذا، لأنَّ البدنَ مُدَارٌ بروحه، ومَن نفخ فيك هذه الرُّوح؟ لقد نفخها الله ﷻ فيك وقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: 72].

إنَّ هذا البدنَ الذي أنت مُتَشَبِّثٌ به هو مادَّة لا قيمة لها لولا الرُّوح التي نُفِخَتْ فيه، فلا تهتم بجانبك البدني المادِّي علىٰ حساب الجانب الرُّوحي، حتَّىٰ لا تكون مادِّيًا كبني إسرائيل الذين طغتْ عليهم المادِّيات فقالوا لسيِّدنا موسىٰ عليه السلام كما جاء في القرآن: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55]، وهذا لقوة إيمان بني إسرائيل بالمادِّيات وقلَّة إيمانهم بالمُغيِّبات.

والمشكلة عند بني إسرائيل ليستْ في وجود الله، وإنَّما هم يريدون أنْ يروه جهرةً مُجسَّمًا، وهذا هو الأمر الذي طلبوه من سيِّدنا موسىٰ عليه السلام، لأنَّ قلوبَهم وأفكارَهم مشغولةٌ بالمادَّة، ولذلك يريدون أنْ يروا الله مادَّة، وشتَّان بين طلبهم رؤية الله جهرة وطلب سيِّدنا موسىٰ عليه السلام رؤية الله في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 143]، ولكن سيِّدنا موسىٰ عليه السلام لم يَقُلْ مثل ما قال قومه، بل

قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، أي أنَّني مُعِدٌّ إعدادًا لا يمكن أنْ أراك في هذه الحياة، ولكن إنْ أنتَ جعلتَ في إعدادي هذا إعدادًا صالحًا لرؤيتك فسأراك، ولذلك قال: أرني، أي أرني أنت، فإنَّك إنْ لمْ تُرِني فلنْ أستطيعَ أنْ أنظرَ إليك.

وتمعَّن جيِّدًا في كلمة أرني، ولم يقل سيِّدنا موسىٰ عليه السلام: دعني أراك، بل قال: أرني، لأنَّ البشرَ في هذه الحياة ليسوا مُعَدِّين إعدادًا صالحًا لرؤية الله جلَّ جلاله، وهذا الإعداد سيكون في الدَّار الآخرة في عالم البقاء، وقد قال كثير من المُفسِّرين في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26]، قالوا: الحُسنىٰ أيّ المثوبة الحُسنىٰ وهي الجنَّة، والزِّيادة هي النَّظر إلىٰ وجه الله الكريم، وورد في حديث عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: «**إذا دخل أهل الجنَّة الجنَّة يقول الله تبارك وتعالىٰ: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّض وجوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنَّة وتُنَجِّنا من النَّار؟ فيكشف الحجاب، فما أُعْطُوا شيئا أحبّ إليهم من النَّظر إلىٰ ربَّهم**»[1].

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ الإنسان ما دام واقفًا مع متطلِّبات بدنه وشهوات نفسه وحظوظها، فلن يسير إلىٰ ربِّه أبدًا، لأنَّه لا همَّ له إلاَّ المادِّيات، وقلَّما ترىٰ أحدًا مهمومًا لأنَّه قصَّرَ في طاعة من الطَّاعات كأداء الصَّلاة في وقتها، أو الالتزام بالأذكار، أو حضور مجالس العِلْم والهداية والرَّشاد، وهل المادِّيات عندك أعظم من الرُّوحيات؟ وهل ما يوصلك إلىٰ الله هو أقلَّ قيمة وشأنا ممَّا يوصِلك إلىٰ نفْسِك؟ أقول لكم الحقيقة هذه نهاية في الخساسة والدَّناءة وسقوط المراتب، وكان المفروض أنْ لا يكون الحزن والكآبة والهمُّ والغمُّ علىٰ أيِّ أمر من أمور الدُّنيا وشؤونها أبدًا، لأنَّ هذه الدُّنيا مآلها ومصيرها الفناء والرَّحيل ومتاعها زائل، ولذا قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: 77].

وما دامتِ الآخرة خيرٌ لمن اتَّقىٰ، فلماذا تجعل الأولىٰ خيرٌ من الآخرة؟ أتريد أنْ تخالف أمر الله عزَّ وجلَّ، أم تريدُ أنْ تردَّ نصيحة ربِّك؟ ولماذا لا يكون

(1) رواه مُسلم.

اهتمامك وتعلُّقك إلاَّ بالمادِّيات؟ هل تخاف من أن يفوتَك نصيبُك من الدُّنيا؟ لن يفوتك نصيبك الذي قسمه الله لك من الرَّزق أبدًا، وهذا ضمان من الحقِّ ﷻ الذي لا يُخْلِفُ وَعْدَهُ، وهو القائل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: 6].

إنَّ ممَّا ينبغي عليك أنْ تهتمَّ به وتحزنَ إذا فاتك هو كلُّ ما يوصلك إلىٰ الله عزَّ وجلّ، ويُعرِّفك به وبرسوله ﷺ، وما يُعرِّفُك بنفسك وحظوظها، وما يُعرِّفك بهواك، لأنَّ هذه الأمور هي التي تصلك بربِّك وتُقرِّبك منه، وتكون لك ذخرًا عنده وسببًا في نيل رحمته ودخول جنَّته والفوز برضاه، وهذا كلُّ ما يجب أنْ نحزنَ علىٰ فواته، ولكنَّ الكثير منَّا يميل للأمور المادِّية، وذلك لنقص الإيمان وضعفه.

وهذا الكلام ليس دعوة لنبذ المادِّيات، لأنَّ هذه المادِّيات عطاءات الحقِّ ﷻ، وكان من المفروض أنْ لا تحجبنا عن ربِّنا، وأنْ لا تُبعدنا عنه، فإن كانت إمداداته وعطاءاته تُلهينا عنه فذلك من ضعف نظرنا وسوء فهمنا وضعف إيماننا، وكيف يقوىٰ هذا الإيمان؟ إن الإيمان يقوىٰ ويزيد بالمسارعة إلىٰ الخيرات والمسابقة في أعمال البرِّ، ولذا قال الله تعالىٰ مُشيدًا بالسَّابقين: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: 10، 11]، وقال الله ﷻ: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 21].

قال القرطبي في تفسير قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13]: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾، أي شباب وأحداث، حكم لهم بالفُتوة حين آمنوا بلا واسطة، كذلك قال أهل اللِّسان: رأس الفُتُوَّة الإيمان، وقال الجنيد: الفُتُوَّة بذلُ النَّدىٰ وكفُّ الأذىٰ وتركُ الشَّكوىٰ، وقيل الفُتُوَّة اجتناب المحارم واستعجال المكارم، قوله تعالىٰ: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، أي يسَّرناهم للعمل الصَّالح من الانقطاع إلىٰ الله تعالىٰ ومباعدة النَّاس والزُّهد في الدُّنيا، وهذه زيادة علىٰ الإيمان، وقال السُّدِّيُ: زادهم هدىٰ بكلب الرَّاعي حين طردوه ورجموه مخافة

أنْ ينبحَ ويُنَبِّهَ عليهم، فرفع الكلب يديه إلىٰ السَّماء كالدَّاعي فأنطقه الله فقال: يا قوم! لمَ تطردونني؟! لمَ ترجمونني؟! لمَ تضربونني؟! فو الله لقد عرفتُ الله قبل أن تعرفوه بأربعين سنة، فزادهم الله بذلك هدىٰ ...».

وهذه القضيَّة أي قضيَّة التَّيسير من الله ﷻ ليستْ خاصَّة بأهل الكهف فقط، فإذا وَجَدْتَ عُسْرًا في سَيْرِكَ إلىٰ الله، أو عُسْرًا في عمل الصَّالحات، فذلك لضعف في إيمانك، ولقلَّة اليقين عندك، ولخبث في نفسك، وأمَّا لو كنتَ قويَّ الإيمان حقيقة وقاصدًا الهداية وراغبًا فيها، فإنَّ الله ﷻ سَيُيَسِّرُكَ لكلِّ خَيْرٍ، ويفتح لك أبوابه علىٰ مصراعيْه، فإن وقع العُسْرُ فهو من قلَّة يقينك بالله، ومن ضعف إيمانك به، ومِن طَلَبِكَ للأمور بنفْسك لا بربِّك، ولذا أشار ابن عطاء الله رَحِمَهُ اللَّهُ في إحدىٰ حكمه فقال: «ما توقَّفَ مَطْلَبٌ أنت طالبُه بربِّك، ولا تيسَّرَ مطلبٌ أنتَ طالبُه بنفْسك»، وهل الزِّيادة في الهداية خصوصية لأهل الكهف فقط؟ لا، بدليل أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: 17]. والزِّيادة أنْ يُسهِّل لك الله ﷻ العملَ الصَّالح ويُيَسِّره لك، ويجعل في نفسك الرَّغبة في الطَّاعة، فإنْ لم تجدْ هذه الصِّفات في نفْسك، فذلك لخَلَلٍ فيك، وليس ذلك بخلا من الله جلَّ في علاه.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: 15-17]: «قوله تعالىٰ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ﴾ أي قال بعضهم لبعض: هؤلاء قومنا أي أهل عصرنا وبلدنا عبدوا الأصنام تقليدًا من غير حجَّة ﴿لَّوْلَا﴾ أي هلاَّ ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ﴾ أي بحجَّة علىٰ عبادتهم الصَّنم».

قال القرطبي: «قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾، ومضمون هذه الآية أنَّ بعضهم قال لبعض: إذا فارقنا الكفَّار وانفردنا بالله تعالىٰ، فلنجعل الكهف مأوىٰ ونتَّكل علىٰ الله، فإنَّه سيبسط لنا رحمته وينشرها علينا، ويهيئ لنا من أمرنا مرفقًا، وهذا كلُّه دعاء بحسب الدُّنيا وعلىٰ ثقة كانوا من الله في أمر آخرتهم، قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الكهف: 17]، يعني أنَّ الشَّمس إذا طلعتْ مالتْ عن كهفهم ذات اليمين، أي يمين الكهف، وإذا غربت تمرُّ بهم ذات الشِّمال، أي شمال الكهف فلا تصيبهم في ابتداء النَّهار ولا في آخره، وعلىٰ الجملة فالآية في ذلك أنَّ الله تعالىٰ آواهم إلىٰ كهف هذه صفته، لا إلىٰ كهف آخر يتأذون فيه بانبساط الشَّمس عليهم في معظم النَّهار، والمقصود بيان حفظهم عن تطرُّق البلاء وتغيُّر الأبدان والألوان إليهم والتّأذي بحرٍّ أو برد».

إنَّ ممَّا سبق يدلُّ علىٰ شدَّة يقين فتية أهل الكهف بالله ﷻ، لأنَّهم فرُّوا ولم يخافوا قومهم ولا بطش سلطانهم، ولقد بسط الله ﷻ جناح العناية عليهم وحفظهم ورعاهم، وكانت الشَّمس لا تصيبهم البتَّة لا في الشُّروق ولا في الغروب، وكانت تميل عليهم ميلا خفيفًا، وذلك إكرام لهم، أو ليسوا هم كرماء علىٰ الله؟ بلىٰ هم كرماء علىٰ ربِّهم، وأكرموا أنفسهم بتقوىٰ الله، فأكرمهم الله بكل ما وقع لهم، وهذه القضيَّة ليست خاصَّة بهؤلاء الفتية فقط، فكلُّ من يكون تقيًّا يكون كريمًا علىٰ ربِّه، ويكرمه بكرمه الواسع وجوده العميم وفضله الكريم، فمن أراد الإكرام فلا ينتظر ذلك من جانب إصابة الدُّنيا، أو من باب جمع الأموال، أو نيل العزِّ والجاه، بل الإكرام الحقيقيُّ هو أن تُكرِم نفسك بتقوىٰ الله ﷻ فتكون أهلا لكرمه وجوده ولطفه.

وهذا ما حدث لفتية أهل الكهف، فقد كانت الشَّمس لا تلفحهم بنورها، بل كانت إذا طلعتْ تميل عن كهفهم ذات اليمين، وإذا غربت تمرُّ بهم ذات الشِّمال،

ولا تصيبهم في ابتداء النَّهار ولا آخره، وهذا بأمر من الله ﷻ، ومحض إكرام منه، لأنَّ عدم مرور الشَّمس عليهم يجعل أبدانهم عُرضة للفساد، ولكنَّ الحقَّ ﷻ حفظهم ورعاهم فلم يطرًا عليهم أيُّ أذىٰ من ذلك، وكأنَّ الله تبارك وتعالىٰ يقول لنا: إذا كنتم ترون أنَّ الشَّمسَ هي التي تُصلح كلَّ شيء، فهؤلاء الفتية ستصحُّ أبدانهم بدون أنْ تمرَّ عليهم شمسٌ.

وقد جاء هذا الأمر مخالفًا للطَّبيعة وللقوانين الكونيَّة والبشريَّة، وكلُّ هذا إكرام لأهل الكهف، لأنَّهم استعجلوا المكارم والفضائل، وارتقوا إلىٰ المراتب العلية من مراتب الإيمان، والتجأوا إلىٰ الله وكانوا في معيَّته وحمايته، ولم تكن حمايتهم بالشَّمس بل بمعيَّة ربِّهم، أي أنَّ حمايتهم لم تصبح بالأشياء الطَّبيعية وبالقوانين الكونيَّة، بل بقوانين أخرىٰ ربَّانيَّة، وإن كانت القوانين الكونيَّة قوانين ربَّانيَّة، ولكنها مقيَّدة بأمور، ولكن لا قيد في هذه الحالة خرقًا للعادة.

إذن يتبيَّن لنا أنَّ ما حدث لأهل الكهف محض عناية وفضل من الله ﷻ وخرق للعادة، وهكذا حال الصَّالحين الذين يلتجئون إلىٰ ربِّهم حقَّ الالتجاء، ويصدقون معه، ويسعون للتَّقرُّب إليه، فيتولَّىٰ إكرامهم، لأنَّه قال وقوله الحقُّ: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: 13]، وكأنَّ الله ﷻ يقول: أنتم تعرفون أنَّ الشَّمس ضرورية لإصلاح كلِّ ما في الكون، وبدونها ينتشر الفساد في كلِّ شيء، ولكنَّني سأضع قانونًا خاصًّا.

ونحن نعرف أنَّ هناك قانونًا عامًّا وقانونًا خاصًّا، فإذا وقع القانون الخاصُّ أنكره أهل القانون العامِّ، وهكذا دأب أهل القانون العامِّ الإنكار علىٰ أهل القانون الخاصِّ، ولتوضيح هذا المعنىٰ نأتي ببعض الأمثلة فنقول: عندما يأتي أحد إلىٰ حديقة ما ويقلع بعض الأشجار منها، فيُنكر عليه ذلك الفعل كلُّ مَن يراه، وهذا بحكم القانون العامِّ الذي يقول: أنَّ قلع الأشجار محض فساد، ولكن إذا بحثنا القضيَّة جيِّدًا وعرفنا أنَّ هذا الشَّخص كان يقلع تلك الأشجار لأنَّها غير سليمة

وفاسدة، وقد تضرُّ الأشجار الصَّالحة الأخرىٰ، ولذا أصبح قلعها ظاهره فساد وباطنه إصلاح، وهذا بحكم القانون الخاصِّ.

وقد نرىٰ رجال الشُّرطة يُخرجون عائلات من شُقَقٍ وبيوت فنظنُّ أنَّ الأمر غير لائق وننكر ذلك، ولكن إذا قال لنا أحد رجال الشُّرطة: أنَّ هذه الشُّقق آيلة إلىٰ السُّقوط، ولا بدَّ من إنقاذ السُّكان من هذه الكارثة، فعندئذ يزول منَّا العجب، ونُدرك حقيقة أمر القانون الخاصِّ، ونعرف أنَّ فعلَ الشُّرطة فِعل محمود، وليس مذمومًا، وقد نسمع أنَّ طبيبًا قصَّ رِجْلَ مريضٍ فننكر ذلك بداية، ولكن إذا أخبرنا هذا الطَّبيب أنَّ الأمر في صالح ذلك المريض، إذ قد ينتشر المرض في كلِّ بدنه، فعندئذ نعرف سبب ما أقدم عليها الطَّبيب من عمل، وهكذا نُفرِّق بين القانون العامِّ والقانون الخاصِّ.

ولنعُد من جديد لقصَّة أهل الكهف الذين بدأ إكرام الله لهم منذ البداية ومن الانطلاقة الأولىٰ، حيث ألهمهم إلىٰ أن يأووا إلىٰ الكهف، وملأ قلوبهم عزمًا وصبرًا، وأزال من قلوبهم الرُّكون إلىٰ غير الله ﷻ، فلم يلتفتوا إلىٰ أقاربهم وذويهم، بل فرُّوا بدينهم، والتجأوا إلىٰ ربِّهم، ودخلوا في معيَّة مولاهم، فملأ قلوبهم إرادة وعزمًا، وألهمهم رشدهم، ألم يقولوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10]، أي هيئ لنا أمرًا راشدًا نكون عليه حتَّىٰ نحتفظ بديننا، وحينئذ ألهمهم الله ﷻ أن يأووا إلىٰ الكهف، فكانت عزلتهم عن طريق الإلهام الرَّبَّانيِّ.

ومن هذا المنطلق لا ينبغي لأحد أن تُسوِّلَ له نفْسُه وبشهوة منها الاعتزال عن الخَلْق، ونقول لهذا إنَّ أمر العزلة في حقَّك شهوة نفسيَّة، وليست إلهاما من الله، وقد لا تدوم لك، ولا تتحصَّل علىٰ نتيجة منها، لأنَّ الشَّيطان قد يأتيك ويُوَسْوِسُ لك ويُلهمك بأنَّ الخَلْقَ كلَّهم مُعْوَجُّون، وليس من بينهم أحد علىٰ استقامة من أمره، وعليك باعتزالهم والفِرار منهم، وبعد ذلك عندما تدخل في العزلة ويحسُّ منك العزم يقول لك: ألست محتاجًا في حوائجك إلىٰ الخَلْق؟ فدعك من الاعتزال

عنهم، وهكذا يبعثك في أوَّل أمرك إلىٰ العزلة، وبعدئذ يُثير عليك نفسك ويردُّك علىٰ أعقابك، لأنَّك انطلقتَ من نفْسك إلىٰ نفْسك، وكانت عزلتك شهوة من النَّفس وحظًّا من حظوظها ولعبة من ألاعيب الشَّيطان، ولذلك يقول السَّادة الصُّوفية والعلماء الأجلاَّء لأتباعهم وتلامذتهم: لا تُقْدِمُوا علىٰ أمر من أنفسكم.

ومن هنا عليك بالمشاورة قبل أنْ تفعل أيَّ أمر، فلعلَّ ذلك الأمر يكون بارزًا من نفسك، وفيه شهوة من شهواتها وحظ من حظوظها، وأنت عندما تتقيَّد بأوامر شيخك المربّي فقد تقيَّدت بأوامر الله لأنَّ الشَّيخ المربّي ليس له أوامر تخصُّه، وإنَّما يدلُّك علىٰ أوامر الله ورسوله، وهكذا يجعلك أستاذك ومربّيك تنطلق من موجب شرعيٍّ تعبديٍّ، ويُخرِجك من الشَّهوات فلا تقع في الحسِّية الظاهرة منها ولا في الخفيَّة الباطنة، ولكن عليك أنْ تلتزمَ بأوامر الشَّيخ المربّي، لأنَّ الله ﷻ يقول في حقِّ الرَّسول ﷺ في القرآن الكريم: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: 7].

فكلُّ ما آتاك من رسول الله ﷺ فقد أتاك من الله ﷻ، فإن لم تأت به فقد عصيتَ الله ورسوله وعليك بأن تتقيَّد بما جاءك عن العلماء وتعمل به، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «... **وإنَّ العلماء ورثةُ الأنبياء، وأنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا دينارا ولا درهمًا، إنَّما ورَّثوا العِلْم، فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافرٍ**»[1].

وعندما أتكلَّم عن العلماء والعِلْم فإنِّي أقصد العلماء الذين يتعلَّمون العِلْم لله ويُعلِّمونه لله، وليست القضيَّة قضية شهادات، ولكن العِلْم بالمفهوم الصَّحيح والسَّليم هو العِلْم الذي يكون أساسُه التَّقوىٰ والورع، والإخلاص والصِّدق، وخشية الله جلَّ جلاله ومحبَّته، وقد ورد في حديث شريف عن رسول الله ﷺ قوله: «**تعلَّموا العِلْمَ فإنَّ تعلُّمَه لله خَشْية، وطلبه عبادة، ومُدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قُربة...**»[2]. وأنت إذا خالفتَ

(1) رواه التِّرمذي وأبو داود وابن ماجه وغيرهم بألفاظ متقاربة.

(2) أورده الإمام أبو حامد الغزالي في الإحياء.

عالِمًا فقد تستهين بهذا الأمر وتقول لك نفسك: هل خالفتَ نبيًّا؟ إنَّك لا تدري أنَّ مخالفتَك للعالم هي مخالفة للنَّبيِّ ﷺ وفي مخالفتك للنَّبيِّ مخالفة لله، لأنَّ القضيَّةَ سلسلةٌ مُحْكَمَةٌ مترابطة مع بعضها.

والعالِمُ الحقيقيُّ لا يأمرك بأمْر من نفْسِه، وإنَّما يأمرك بما أمرك به ربُّك، وبما أمرك به النَّبيُّ ﷺ وكثير من النَّاس مَن يخالفُ أوامر العلماء عندما لا يتماشىٰ ذلك مع مصالحه الدُّنيوية أو مع هوىٰ نفسه أو هوىٰ أحد أقاربه، ومن يفعل ذلك فقد تعرَّض للهلاك، لأنَّ العالِمَ إذا كان مُقتديًّا بالنَّبيِّ ﷺ لا يأمرك إلاَّ بما فيه مصلحتك، لأنَّ نظره دينيٌّ ربَّانيٌّ، وليس نظرًا ماديًّا، لأنَّه ليس له غرضٌ فيك، ولا يرتجي منك شيئًا، وإنَّما هو يدلُّك علىٰ الله، والله ﷻ يقول: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: 21]، وقد أمر الله ﷻ نبيَّه الكريم ﷺ بالاقتداء بالأنبياء والمُرْسَلِينَ السَّابقين فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90].

قال القرطبي في تفسيره: «قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي من الكهف والفجوة: المتَّسع، قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لطفٌ بهم، وقيل: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ لكثرة تقلُّبهم كالمُستيقظ في مضجعه، ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ كقولهم: وهم قوم ركوع وسجود وقعود، ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: لئلاَّ تأكل الأرضُ لُحومَهم ...».

إنَّ كلَّ ما فعله الله ﷻ مع أصحاب الكهف هو محض إكرام منه علىٰ أولئك الفتية، وثمرة إيمانهم الصَّادق، والالتجاء إلىٰ الحقِّ عزَّ وجل بصِدق ويقين، وما فائدة تدبير العبد والتجائه لنفْسِه وهواه وإلىٰ أحد سوىٰ مولاه؟ لا فائدة في كلِّ ذلك، بل هو الخسران المبين، فالذي يريد أن يلتجئ حقيقة فليلتجئ إلىٰ ربِّه، وليكن في معيَّته، فإنَّ في ذلك كلَّ خير، ولا يكن في معيَّة نفسه ولا في معيَّة أهله أو أحد من الخَلْقِ، لأنَّه لا نفع ولا ضرر إلاَّ بيد الله، وانْظُرْ إلىٰ عناية الله تبارك

وتعالىٰ كيف بسطتْ جناحها الآمن علىٰ الفِتية في الكهف، وقد تولاَّهم الحقُّ ﷻ واعتنىٰ بهم عناية تامَّة، وصدق مَن قال:

وإذا العِنايةُ لاحظتك عيونها نمْ فالمخاوف كلُّهنَّ أمان

إنَّ العنايةَ الرَّبَّانيَّة لا تشملك ولا تحلُّ بساحتك وأنت غافلٌ عن ربِّك وبعيد عنه ومشغول ومهموم بما سواه، والرِّعاية الإلهيَّة لا تكون إلاَّ في قربك من الله وقربك من الصَّالحين، لأنَّك إذا لم تكن مقبولاً عند الله فبكثرة مجالستك للصَّالحين وحبِّهم وسماع مواعظهم وإرشاداتهم قد ينقلك اللهُ من حال الأشقياء إلىٰ حال السُّعداء تكريمًا لهم كما ورد في الحديث: «...**هم الجلساءُ لا يشقىٰ بهم جليسُهم**»[1].

قال القرطبي في تفسيره: قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾: (فيه أربع مسائل: الأولىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلْبُهُم﴾، قال عمرو بن دينار: إنَّ ممَّا أُخِذَ علىٰ العقرب ألاَّ تضُرَّ أحدًا قال في ليله أو نهاره: صلَّىٰ الله علىٰ نوح، وإنَّ ممَّا أُخِذَ علىٰ الكلب ألاَّ يضُرَّ مَن حمل عليه إذا قال: ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾.

إنَّ في هذا إكراما لنا نحن فبركةُ الصَّالحين وصلتْ إلينا، وكلُّ هذا بفضْل صِدقهم مع الله ﷻ والتجائهم إليه، ويشهد لهذا ما ورد عن النَّبيِّ ﷺ في الحديث الشَّريف: «إنَّ اللهَ يدفعُ بالمُسْلِم الصَّالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه»[2]، وهناك البعض يقولون: إنَّ صلاح الصَّالح لنفْسِه، فانظر ماذا فعل صلاح الصَّالحين، فكم من قرون بيننا وبين وقوع هذه القصَّة العجيبة، ورغم ذلك ما زال النَّاس يستفيدون من آثار الصَّالحين.

قال القرطبي في تفسيره: «قال كعب: مرُّوا بكلب فنبح لهم فطردوه، فعاد فطردوه مرارًا، فقام الكلب علىٰ رجليه ورفع يديه إلىٰ السَّماء كهيئة الدَّاعي فنطق فقال: لا تخافوا منِّي، أنا أحبُّ أحبَّاء الله تعالىٰ فناموا حتَّىٰ أحرسكم».

---

(1) جزء من حديث طويل رواه البخاري وأحمد والبيهقي وغيرهم.

(2) ورد هذا الحديث في تفسير الرَّازي وفي تفسير اللُّباب لابن عادل وفي تفسير النّيسابوري.

وقال القرطبي أيضًا في تفسيره: «قال ابن عطيَّة: حدَّثني أبي ﷺ قال سمعتُ أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على مِنْبَرِ وَعْظِهِ سنة تسع وستِّين وأربعمائة: إنَّ من أحبَّ أهل الخيْر نال مِن بركتهم، كلبٌ أحبَّ أهل فضل وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله».

وقال أيضًا: «إذا كان بعض الكلاب قد نال الدَّرجة العلية بصحبته ومخالطته الصُّلحاء والأولياء حتَّى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جلَّ وعلاً، فما ظنُّك بالمؤمنين المُوحِّدين المُخالطين المُحبِّين للأولياء والصَّالحين، بل في هذا تسلية وأنس للمؤمنين المُقَصِّرين عن درجات الكمال المُحِبِّين للنَّبيِّ ﷺ وآله خير آل».

لقد قال كلبُ أهل الكهف: أنا أحبُّ أحبَّاء الله تعالى، والعجبُ أنْ يقولَ لنا البعضُ لا تُحِبُّوا أحبَّاءَ الله تعالى، بل بالغُوا حتَّى جعلُوا حُبَّ الصَّالحين شِرْكا بالله، وادَّعوا أنَّ مَن أحبَّهم هو مُشْرِكٌ بالله، والمؤسفُ أنَّ الكلامَ يُسْتَعْمَلُ باسْم الإسلام، ويُقال باسْم الإسلام، ويسمعه النَّاس على أنَّه الإسلام، ويأخذه البعضُ مُسَلَّمًا، وقد أنكر جماعةُ قضيَّة البركة ونفوا وجودها تمامًا، والحال أنَّ السِّيرةَ النَّبويَّة العطرة محشوة بالآثار التي تدلُّ على أنَّ الصحابة كانوا يتبرَّكون بآثار النَّبيِّ ﷺ.

وقد جاء في رواية عن إسرائيل عن عثمان بن عبد الله بن موهب قال: «أرسلني أهلي إلى أمِّ سلمة زوج النَّبيِّ ﷺ بقدح من ماء، وقبض إسرائيل ثلاث أصابع، فجاءت بجُلْجُل[1] من فضَّة فيها شَعْرٌ من شَعْرِ رسول الله ﷺ وكان إذا أصاب أحدٌ من النَّاس عيْن أو شيء بعث إليها مِخْضَبَه[2]، فاطَّلعتُ في الجلجل فرأيت شعرا أحمر» »[3].

(1) **الجُلجُل**: الجرس الصَّغير الذي يُعلَّق في أعناق الدَّواب وغيرها.

(2) المِخضب (بكسر الميم): شبه الإجَّانة (الإناء) يُغْسل فيه الثِّياب. (جامع الكتاب عن: لسان العرب).

(3) رواه البخاري.

وجاء في رواية: «... وما تنخَّم النَّبيُّ ﷺ إلاَّ وقعتْ في كفِّ رجلٍ منهم فدلك بها وجهه وجلده»[1]، وقد ذكر بعض أصحاب السِّيَر أنَّه: «لما نحرَ رسولُ الله ﷺ الهَدْيَ، دعا الحلاَّق، وحضر المُسلِمون يطلبون من شعْر رسول الله ﷺ فأعطىٰ الحلاَّق شقَّ رأسه الأيمن، ثُمَّ أعطاه أبا طلحة الأنصاري، وكلَّمه خالد بن الوليد في ناصيته حين حلق فدفعها إليه، فكان يجعلها في مقدم قلنسوته فلا يلقىٰ جمعا إلاَّ فضَّه»[2].

إذن لقد قلنا: أنَّ مَن أحبَّ أهل الخير نال من بركاتهم، فكلب أصحاب الكهف أحبَّ الصَّالحين وتبعهم، فذكره الله ﷻ في القرآن الكريم، وجعل تلاوة اسمه عبادة، وهذا هو التَّشريف الحقيقيُّ الذي لا يفوقه أيُّ تشريف آخر، وعندما تتلو القرآن وتتلفظ بكلمة كلبهم، فلك بكلِّ حرف عشر حسنات، والله يضاعف ذلك علىٰ قدر الإخلاص والمحبَّة لله، ولذا ينبغي علينا أنْ لا نُشغِلَ أنفسنا بمَن يقدحون في أولياء الله، ولا نُلقِي بالا لانتقادهم وإنكارهم علىٰ من يحبُّ أهل الله ويزورهم، ويأخذ عنهم ويسلك طريقهم، وأنت إذا أحببتَ وليًّا لله فإنَّك أحببتَه لأنَّه حبيب الله، وحبُّك له يقرِّبك من الله، ويجعلك من المُتحابِّين فيه الذين جاءتهم البشرىٰ علىٰ لسان النَّبيِّ الكريم ﷺ في قوله: «**إنَّ اللهَ تبارك وتعالىٰ يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون لجلالي اليوم أُظِلُّهُم في ظِلِّي يوم لا ظِلَّ إلاَّ ظِلِّي**»[3].

إذا زرتَ وليًّا من الصَّالحين فقد تكون تلك الزِّيارة سببًا في هدايتك وتوفيقك ببركة ذلك الوليِّ الصَّالح وستُكتبُ من المُتزاورين في الله الذين قال في حقِّهم الحقُّ ﷻ في حديث قدسيٍّ: «**وجبتْ محبَّتي للمُتحابِّين فيَّ والمُتجالسين فيَّ والمُتزاورين فيَّ والمُتباذلين فيَّ**»[4].

---

(1) المرجع نفسه.

(2) جاء هذا في المغازي للواقدي.

(3) رواه الإمام مالك في الموطأ، والإمام مسلم في صحيحه، والإمام أحمد في مسنده وغيرهم بألفاظ متقاربة.

(4) رواه مالك وأحمد والطبراني والحاكم وغيرهم.

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ الذين يقدحون في مَن يحبُّون أولياء الله ويزورونهم وينسبونهم إلىٰ الشِّرك علىٰ غير صواب من أمرهم، لأنَّ تصوَّر الشِّرْك أو الكُفر هو أمر وهميٌّ يظنُّه البعضُ من كمال التَّوحيدُ، وهذا هو العجب، فالبعض يظنُّ أنّ هذه التَّصوُّرات التي يتصورونها في عقولهم هي من كمال إيمانهم وصِدقهم في العبودية لله، وهم يعتقدون أنّهم بهذا يدعون المُسلمين لكمال مراتب الإيمان، وهل من كمالات مراتب الإيمان أنْ تكرهَ من يحبُّه الله، وتحتقرَ من يُعظِّمه الله؟! إنَّ هذا ليس من الإيمان في شيء أبدًا، والله ﷻ يقول: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: 62-64].

وهذا يعني أنَّ اللهَ ﷻ يُعلنُ أنَّ أولياءه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وذلك لعلوِّ مقامهم عند الله، ولعظمة مكانتهم عند ربِّهم، ومن يُعارض حكم هذه الآية فقد باء بخسران مبين، ومَن القائل هنا؟ هل هو بشر أمْ نبيٌّ ورسولٌ؟ لا، إنّه الله جلَّ جلاله وتقدَّست صفاته، ثُمَّ بعد ذلك وكأنَّ سائلا سأل ربَّ العزَّة جلَّ وعلا: ومن هم أولياء الله؟ وما هي صفاتهم؟ فقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

قال النَّبيُّ ﷺ: «**... ألا لا فضْلَ لعربيٍّ علىٰ أعجميٍّ، ولا لعجميٍّ علىٰ عربيٍّ، ولا لأحمر علىٰ أسود، ولا لأسود علىٰ أحمر، إلاَّ بتقوىٰ الله ...**»[1]، فالأتقياء هم أصحاب الفضل بشهادة الله ﷻ وبشهادة المصطفىٰ ﷺ، وكيف يقول أحد أنّ من يُحبُّ أولياء الله أو يزورهم فقد أشرك بالله؟ وهل هذا كلام العقلاء؟! إنَّ هذا ليس من كلام العقلاء في شيء، لأنَّ من يزور الصَّالحين أمواتًا أو أحياء لا يتصور في ذهنه أوفي عقله أنَّ الأولياءَ أرباب من دون الله، ولا يعتقد في قلبه هذا الاعتقاد إطلاقًا مهما كانت درجة جهله.

(1) رواه أحمد والبيهقي وغيرهما.

وصحيح أنَّ بعض الذين يزورون أولياء الله أمواتًا أو أحياء لا يعرفون آداب تلك الزِّيارة، ويجهلون الأمور الشَّرعيَّة، ولكن لا يصل الحال بهم إلىٰ درجة الكُفر والشِّرْك، ومن واجب العلماء تبصرة هؤلاء بالآداب الشَّرعيَّة المطلوبة في هذا المجال بالموعظة الحسنة والكلمة الطيِّبة، وليس بالتَّعنيف والانتقاد الجارح والنِّسبة إلىٰ الكُفْر والشِّرْك.

قد يُكرِم الله عزّ وجلّ من يُحبُّ أولياء الله ويزورهم، لأنَّ عند ذكر أهل الله تنزل الرَّحمات، ولا شكَّ أنَّ عند زيارتهم تحلُّ البركات في قلوب من يزورهم بصدق، وهذا من باب إكرام الحقِّ ﷻ لعباده المؤمنين الأتقياء وأوليائه الصَّالحين الذين قال في حقِّهم: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، ومَن مِنَّا لا يُحبُّ أن يكون مع الفائزين؟ والنّاس صنفان فاسد وصالح، فأيُّ الجهتين خير؟ لا شكَّ أن في محبَّة الصَّالحين ومتابعتهم ومجالستهم والاقتداء بهم الخَيْرَ كلَّه.

إنَّ بعضَ الذين ينتقدون أولياء الله ﷻ ويقدحون في سِيرهم لا يبتغون من وراء ذلك إلاَّ صرف وجوه النَّاس إليهم، ومن كانت هذه نيَّته في طلب العِلْم ونَشْرِه فأخشىٰ ما يُخْشىٰ عليه أن يدخل تحت الوعيد الذي جاء في الحديث الذي قال فيه الرَّسول ﷺ: «**من تعلَّم العِلْم ليُبَاهي به العُلماء، أو يُماري به السُّفهاء، أو يصرِف به وجوهَ النَّاس إليه، فهو في النّار**»[1].

إذن يجب علينا أن نحذر من الذين ينتقدون عباد الله الصَّالحين من الأولياء وينكرون علىٰ من يحبُّهم ويزورهم، وعلينا أن نلتزم بمجالسة أهل الله وبمحبَّتهم بصدق، ولكن لا ينبغي علينا أن نكتفي بتمجيد الأولياء ومدحهم وزيارتهم بدون أن نصدق مع الله ﷻ، وأن نتَّقيه، وأن نعرفه ونلتزم شرعه ونقتدي بنبيِّه الكريم ﷺ، وأن نعمل من الصَّالحات ما استطعنا إلىٰ ذلك سبيلاً، لنرتقي إلىٰ مراتب الصَّالحين، وأمَّا من تقاعس عن العمل الصَّالح، ولم يقتد بسيرة المتَّقين،

(1) رواه الطَّبراني في المعجم الأوسط بهذا اللَّفظ.

وادَّعىٰ أن أباه أوجدَّه كان صالحًا فلا عِبرة بكلامه ولا يُعتدُّ به، وهو كلام لا يُقبَل عند العقلاء.

ولهذا يجب علينا أن نعتمد علىٰ العمل الصَّالح والعمل بالشَّريعة بإخلاص وصحبة الصَّالحين ومعاشرتهم في الله ولله، راجين أن يُوفِّقنا العليُّ القدير إلىٰ متابعتهم والثَّبات علىٰ محبَّتهم، وأن يرقِّينا إلىٰ منازلهم ومراتبهم حتىٰ نكون من المحبوبين عند الله والمحبِّين له، لأنَّ في صحبة الصَّالحين تسلية للمقصِّرين من المؤمنين لكي يُصلِحوا ما بهم من التَّقصير، فعندما يرىٰ أحدنا فضل الله علىٰ أوليائه المتَّقين الصَّالحين وإكرامه لهم وما نالوه من البركات، فإنَّه يسعىٰ جاهدًا ليرتقي إلىٰ مراتبهم ويصِل إلىٰ منازلهم، ويُحرِّك هذا في نفسه العزم فيخرج من التَّقصير إلىٰ الجدِّ والتَّشمير، ويحاول أن يرتقيَ إلىٰ كمال الإيمان، وهذه من أعظم الفوائد من صحبة الصَّالحين.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: «بينما أنا والنَّبيُّ ﷺ خارجان من المسجد فَلَقِيَنا رجلٌ عند سُدَّة[1] المسجد فقال: يا رسول الله متىٰ السَّاعة؟ قال النَّبيُّ ﷺ: ما أعددتَ لها؟ فكأنَّ الرّجل اسْتَكَانَ ثُمَّ قال: ما أعددتُ لها كبير صيَّام ولا صلاة ولا صدقة ولكنِّي أُحِبُّ اللهَ ورسولَه، قال: أنت مع من أحببتَ»[2].

لقد كان أنس بن مالك ﷺ خادم رسول الله ﷺ، فنال مكانة عظيمة ومرتبة مرموقة عند الله ورسوله، وهكذا شأن كلِّ من يخدم الصَّالحين، لأنَّ خدمتهم ليست ذلاً أو احتقارًا، ألم يقل الرَّسول ﷺ: «**...واللهُ في عَوْنِ العبد ما كان العبدُ في عَوْن أخيه** ...»[3]، وهذا في حقِّ أخيك، فما بالك مع من كان بمنزلة أبيك، لأنّه عرَّفك بالله حيث كنتَ لا تعرفه، وعلَّمك لله ما لم تكن تعلمه، فمثل هذا لو خَدَمْتَه بأشفار عينيك لم تؤد حقَّه، ولكنَّ شيخك لا يطلب منك حقًّا، وإنَّما

(1) سُدَّة المسجد يعني باب المسجد.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه مسلم وأبو داود والتِّرمذي وغيرهم.

يخدمك لله، فاخدمه أنت كذلك لله، والقضيَّة ليست قضيَّة تبادل، لأنَّ التَّبادل ليس من صفات الكرام، بل من صفات اللِّئام.

ولنعد إلىٰ الحديث الأخير، فالرَّجل لمَّا سأل النَّبيَّ ﷺ فقال: متىٰ السَّاعة؟ قال له: ما أعددتَ لها؟ والإعداد هنا ليس من باب الاستعداد والعُدَّة، وجواب الرَّسول ﷺ فيه عِبرة وعِظة للسَّائل، وكأنَّه يقول له: وهل أعْدَدْتَ نفْسَك للسَّاعة؟ وهل تهيَّأتَ لها علىٰ أحسن هيئة؟ وهل أعددتَ لها من الأعمال ما يجعلك آمنًا؟ ولا بدَّ علىٰ الإنسان الذي يتيقَّن من الموت أن يُعِدَّ نفْسَه لها، ويعدَّ نفْسَه في عداد الموتىٰ.

وقد أوصىٰ النَّبيُّ ﷺ سيِّدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال: «**اعبد الله كأنَّك تراه، واعدُدْ نفْسَك من الموتىٰ، واذكرْ اللهَ عند كلِّ شجر وعند كلِّ حجَر ...**»[1]، أي اعْدُدْ نفْسَك من المَيِّتين من الآن، ولا تفكِّر في الحياة، بل فكِّر فيما بعد الموت، لأنَّ العقلاء هم الذين يفكِّرون في الموت وما بعدها، في حين أنَّ الأغبياء والمجانين لا يفكِّرون إلا في الحياة ولا يعملون لما بعدها من الموت، والدَّليل علىٰ ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**الكيِّسُ من دانَ نفْسَه وعمِل لما بعد الموت، والعاجزُ من أتْبَع نفسَه هواها وتمنَّىٰ علىٰ الله**»[2].

ومعنىٰ تمنَّىٰ علىٰ الله أي كان تائها ومغمورًا في هوىٰ نفسه يلعب ويلهو، ويقول في نفسه: إنَّ ربِّي غفور رحيم، فهل هذا من العقل في شيء، ولمَّا سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ فقيل له: «**يا نبيّ الله مَن أكْيَسُ النَّاس وأحْزَمُ النَّاس؟ فقال: أكثرهم ذِكْرًا للموت، وأشدّهم استعدادا للموت قبل نزول الموت، أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدُّنيا وكرامة الآخرة**»[3]، فإذا كان أعقلُ النَّاس أكثرَهم ذِكْرًا للموت، فمن هو بالمقابل المجنون؟ إنَّ المجنون هو الذي لا يذكر الموت إلاَّ قليلاً.

---

(1) رواه الطَّبراني في المعجم الكبير وابن أبي شيبة في مصنَّفه.

(2) رواه التِّرمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم.

(3) رواه الطَّبراني في المعجم، وذكره الهيثمي في مجمع الزَّوائد ومنبع الفوائد.

ولو عُدنا إلىٰ حديث سيِّدنا أنس بن مالك رضي الله عنه الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ للسَّائل: «أنتَ مع مَن أحْبَبْتَ»، فإنَّه يتبيَّن لنا أنَّ من أحبَّ قومًا كان معهم، فينبغي عليك أن تكون مُحِبًّا للصَّالحين حتَّىٰ تكون معهم، فلعلَّ اللهَ يُشفِّعهم فيك، وإن كنتَ أحسن منهم صلاحًا فيشفِّعك فيهم، فالصَّالحون لا يعتدُّون بالمقامات، لأنَّ نظرَهم مُتَعَلِّقٌ بالحقِّ ﷻ وليس بسواه، وهذا الحديث الشَّريف يُثبِتُ لنا قيمة محبَّة الصَّالحين، وهذا واضح وليس فيه شكٌّ، لأنَّه ما دام النَّبيُّ ﷺ قال للسَّائل: «**أنتَ مع مَن أحْبَبْتَ**» أي علىٰ إطلاقها ولم يُقيِّدها، وبطبيعة الحال أنَّ مَن يُحِبُّ الصَّالحين فإنَّه لا يحبُّهم إلاَّ إذا كان يحبُّ اللهَ ورسولَه، ومع الأسف الشَّديد أنّ البعضَ يُعَلِّمون النَّاسَ الإنكار علىٰ الصَّالحين، ويحثُّونهم علىٰ عدم مجالستهم، ويدفعونهم إلىٰ بُغضهم، ويظنُّون أنَّ هذه قُرُبَات يتقرَّبون بها إلىٰ الله، فسبحانك اللَّهُمَّ هذا بهتان عظيم.

إذن علىٰ المؤمن أنْ يدقَّ كلَّ أبواب البِرِّ والخَيْرِ، لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ**﴾ [**المائدة: 2**]، ومن باب التَّعاون علىٰ البِرِّ والتَّقوىٰ ينبغي عليَّ عندما أجد أصحاب البِرِّ والخَيْرِ أنْ أتعاونَ معهم، وكيف أتعاون معهم وأنا لا أحبُّهم ولا أجالسهم ولا أعاشرهم ولا أصحبهم؟ فهذه الآية تدلُّ علىٰ وجوب محبَّة الصّالحين ومعاشرتهم، ونحن لا نقصد بالصَّالحين الدجَّالين أهل الدَّروشة، بل نقصد بالصَّالحين الذين مجَّدهم الله ﷻ وذَكَرَهُمْ في القرآن، وتحدَّث عنهم النَّبيُّ ﷺ، وكانوا مُقتدين به ويسيرون علىٰ آثاره، ويتمسَّكون بشَرْعِ الله ولا يحيدون عنه أبدًا.

وفي رواية قال سيِّدنا أنس بن مالك رضي الله عنه: «فما فَرِحْنَا بعد الإسلام فرحَا أشدّ من قول النَّبيِّ ﷺ: **فأنتَ مع مَن أحْبَبْتَ**»، ونحن إذا أردنا أن نرتقي إلىٰ معنىٰ «**فأنتَ مع مَن أحْبَبْتَ**»، يجبُ علينا أنْ نُحِبَّ الله محبَّة العاشقين، ونُحِبَّ رسول الله ﷺ محبَّة الوالهين، ونُحِبَّ الصَّالحين محبَّة المُتَّقين لنكون يوم القيامة مع مَن أحْبَبْنَا.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: 19، 20]، «قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ﴾ البعثُ: التَّحريك عن السُّكون، والمعنىٰ كما ضربنا علىٰ آذانهم أي أيقظناهم وزدناهم هدىٰ وقلَّبناهم بعثناهم أيضًا، أي أيقظناهم من نومهم علىٰ ما كانوا عليه من هيئتهم في ثيابهم وأحوالهم».

البعثُ هو أنْ تُثيرَ الشَّيء من مكانه لتكون له حركة مستقلَّة، أمَّا إذا أثَرْتَ الشَّيء من مكانه وكان لا يتحرَّك إلاَّ بتحريكك أنت، فهذا ليس بالبعث، وقد أكرم الله ﷻ أهل الكهف ببعثهم كرامة لهم وعناية بهم.

قال القرطبي: «قوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ﴾ وذلك أنَّهم دخلوه غدوة وبعثهم الله في آخر النَّهار، قوله تعالىٰ: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾، يُرْوَىٰ أنَّهم انتبهوا جِيَّاعًا، والمدينة: أفسوس، وقيل: هي طرسوس، وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: كانت معهم دراهم عليها صورة الملِك الذي كان في زمانهم، قوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾، قال ابن عبَّاس: أحلَّ ذبيحة، لأنَّ أهل بلدهم كانوا يذبحون علىٰ اسم الصَّنم، وكان فيهم قوم يخفون إيمانهم».

إنّ ما ذُبِحَ علىٰ غير اسم الله ﷻ مُحَرَّمٌ أكله بدليل قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 172، 173]. وبودّنا أن نتطرَّق هنا إلىٰ قضية مهمَّة جدًّا، وهي أنَّ البعض يتحدَّثون عن بعض النَّاس الذين يذبحون الذَّبائح ويتصدَّقون بها علىٰ الأولياء أحياء أو أمواتًا، ويقول

المُنْكِرون علىٰ مَن يفعل ذلك أقوالاً شنيعة وينسبونهم إلىٰ الشِّرْك والكُفر مُسْتَدِلِّينَ بقول الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾.

فهل كلام هؤلاء المنكِرين حقٌّ؟ وهل استدلالهم بالآية الكريمة السَّابقة في محلِّه؟ فنقول: هَبْ أنَّ ابنك رجع من سفر بعيد، أو عاد من أداء فريضة الحجِّ، أو شُفِيَ من مرض ألمَّ به، فقمتَ بذبح كبش بهذه المناسبة فرحًا بما حصل لابنك وشكرًا لله، وقلتَ قبل الذَّبح: باسم الله، فإذا سُئلتَ وقيل لك: لماذا ذبحتَ هذه الذَّبيحة؟ قلتَ: ذبحتُ هذه الذَّبيحة فرحًا بابني، فأيُّ ضير في كلِّ هذا؟!

إنَّه لا ضَيْرَ، ولا ضَرَرَ في كلِّ هذا، وهذا الذي يفعله ويعتقده المُسْلِمُون عادة، ولقد كانت عادة العرب منذ القديم وفي الإسلام إكرام الضَّيف، ولم يزَل عندهم قِرىٰ الضَّيف من شِيَم الكِرام، فهل معنىٰ هذا أنَّهم أشركوا بالله؟ لا، ولقد ثبتَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ أتىٰ إلىٰ بيت أحد الصَّحابة الكرام رُفقة أبي بكر الصِّدِّيق وعمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما وقال له: «إيَّاكَ واللَّبون، اذبح لنا عَنَاقًا»[1].

وقد استدلَّ العلماء من هذا الحديث أنَّه للصَّديق أن يقترحَ شهوتَه من الطَّعام علىٰ صديقه، كأن تقول لصديق لك عندما تكون ضيفًا عنده: أطعمني «ثريدًا»[2] أو اذبح لي عناقًا، أو كبشًا، وكلُّ هذا جائز في الشَّرع ليس فيه شيء من الحرج، ومن عادة النَّاس أنّهم يذبحون عندما يزورهم آباؤهم وأمَّهاتهم، أو أقاربهم وأصحابهم ولم يقل أحد من العلماء: هذا حرامٌ وشِرْك، أو يقل هذا من باب ما أُهِلَّ به لغير الله.

وممّا سبق يتبيّن لنا أنّ الذي يذبح للوليِّ كالذي يذبح لصديقه أو أحد أقاربه بالمعنىٰ السَّابق، فالذي يحبُّ وليًّا حيًّا أو ميِّتا إذا ذبح ذبيحة وذكر اسم الله عليها عند الذَّكاة، وتصَدَّق بها عليه، فقد أتىٰ بعمل صحيح لا يردُّه الشَّرع، وإذا حدَث من بعض النَّاس جهلا منهم ما لا يقبله الشَّرع، فعلينا أنْ نُنَبِّهَهُ لتصحيح النِّيَّة ليكون

(1) رواه الحاكم في المستدرك.

(2) ما يُعرف في مناطق أخرىٰ من الجزائر بـ «الشَّخشوخة». (جامع الكتاب).

عمله موافقًا للشَّرع بالكلمة الطَّيِّبة والموعظة الحسنة، وللأسف الشَّديد أنَّ البعض بمجرَّد أنْ يرىٰ أحدًا يذبح ذبيحة يقول له: هذا شِرْكٌ ويدخل في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾، فنقول لمثل هذا: يا أخي ليس هذا هو الذي أُهِلَّ به لغير الله، بل المقصود ذلك الذي يهلُّ به للأصنام، فكان أحدهم يقول عند الذَّبح: باسم هُبَل، أو باسم كذا وكذا، فهذا هو الحرام، وهل المسلمون يفعلون ذلك؟

لاً، بل كلُّ مسلم إذا أراد أن يذبح ذبيحة يجعلها للقبلة ويقول: باسم الله، أي بمعنىٰ أنَّ هذه الذَّبيحةَ لله، ثُمَّ يُطعِمُ بها من شاء ويقول: لقد ذبحتُ بمناسبة قدوم ابني من سفره مثلاً أو بمناسبة زيارة أقاربي، ولكن أصل الذَّبيحة لله، ومن هنا نقول: تجوز الصَّدقة علىٰ كلِّ مسلم، وأنت حرٌّ، ومن حقِّك أن تتصدَّق علىٰ من شئتَ، إذ ليس هناك نصٌّ شرعيٌّ يعارضك أو ينهاك عن ذلك، غير أنَّنا نقول: أنَّ هناك تصرُّفات يفعلها بعض الذين يذبحون ويتصدَّقون علىٰ الأولياء تدخلُ في باب الحرام، كاختلاط النِّساء بالرِّجال الذي يُنْكِرُهُ الشَّرْعُ، ومن واجبنا أنْ ننبِّهَ هؤلاء علىٰ ذلك، ونرشدهم إلىٰ الحقِّ، ونحثَّهم علىٰ التَّمسك بشرع الله والمحافظة علىٰ حرمة الأولياء أحياء وأمواتًا حتَّىٰ لا يفعل النَّاس بجوارهم إلاَّ عملاً يُرضي الله ورسوله.

إذن يتَّضح لنا ممَّا سبق ذكره أنَّه ينبغي التَّعامل مع المسلمين باللُّطف وحسن الظنِّ بهم، والتَّعامل معهم بالرِّفق، وعدم التَّسرُّع في الحُكم عليهم بما لا يليق في حقِّ المسلم، وتوجيههم وإرشادهم إلىٰ الحقِّ بالحسنىٰ، ولكن مع الأسف الشَّديد نلاحظ أنَّ البعض يقسو علىٰ المُسْلِمين بتصرُّفاته معهم، وسوء الظَّنِّ بهم خاصَّة عندما يتعلَّق الأمرُ بمحبَّة أولياء الله الصَّالحين وعباده المتَّقين، وكأنِّي بالبعض يريد أن يقطعَ الصِّلةَ بين سائر هذه الأمَّة وفضلائها وخواصِّها.

وقد روىٰ لي عالِمٌ من علماء المغرب بلغ الثَّمانين سنة من عمره فقال: كنتُ في زيارةٍ لضريح الوليِّ الصَّالح سيّدي «حرازم» الشَّهير بالصَّلاح والتَّقوىٰ، فالتقيتُ بمجموعة من الشَّباب فقالوا لي: يا شيخ أنت رجل عالِمٌ جليلٌ وتزورُ صاحب هذا

الضَّريح، ألا تعلم أنَّ زيارتَه شِرْكٌ وعبادةٌ لغير الله؟ فأجبتهم قائلاً: نحن عندما نزور ضريح سيِّدي «حرازم» فإنَّنا متأكِّدون بأنَّه عَبْدٌ صالحٌ عَبَدَ اللهَ ﷻ وعَمِل صالحًا، فنأتي لزيارة ضريحه ونتبرَّك به وندعو الله فلعلَّه يستجيبُ لدعائنا في هذا المحلِّ الذي فيه ضريح رجلٍ صالحٍ، فلا ينطبق علينا الحكم بالشِّرْك، لأنَّنا لا نفكِّر في الشِّرْك أصلاً، ومن هذا المنطلق فإنَّ زيارتنا لسيِّدي «حرازم» ليست شِرْكًا، وأمَّا أنتم فزيارتكم له شِرْك، لأنَّكم تنظرونه ربًّا من دون الله، فاحذروا أن تزوروه، وأمَّا نحن فلا نرىٰ الأمر كما ترون.

وقد كنت أعرِف فقيها زيتونيًّا، وكان مُدَرِّسًا يقولُ: إنَّ الذَّبحَ والتَّصدُّقَ علىٰ الأولياء حرامٌ وشِرْكٌ، فجاء أحد إلىٰ شيخ من المشايخ وأخبره بأنَّ هناك عالمًا فقيهًا يقول للنَّاس: إنَّ هذا الأمْرَ حرامٌ وشِرْكٌ، فقال له ذلك الشَّيخ: عندما تذهبُ غدًا إلىٰ حضور درس هذا الفقيه، قُل له: يا سيِّدي الشَّيخ إنَّ عندي كبشًا سمينًا وأودُّ أن أذبحَه لك ولجماعتك، ففي أيِّ يوم تريد أنْ تقبلَ ضيافتي وتجيب دعوتي؟ ففعل ذلك الرَّجل ما أوصاه به الشَّيخ، فقال له ذلك الفقيه: إنِّي أوافقُ علىٰ ضيافتِك فاخترْ أنت الوقت الذي نأتيك فيه مع الجماعة ونحن علىٰ استعداد، فقال له الرَّجل: عجيب أمرك يا سيِّدي ألم تقل لنا البارحة أنَّ الذَّبحَ للعبد شِرك، أم الأمر خاصّ بأولياء الله ولا يخصُّكم؟! ففهِم العالِمُ الفقيه الأمرَ وضحك، ولم يُجِبْ علىٰ السُّؤال وصار بعد ذلك لا يُنْكِرُ علىٰ من يذبحُ ذبيحة لله ويتصدقُ بها علىٰ الأولياء أحياء أو أمواتًا، ثُمَّ تاب وصلُح أمره وأصبح من الصَّالحين، جعلنا الله بفضله وكرمه من أتباع عباده الصَّالحين، وحشرنا في زُمرتهم، إنَّه علىٰ ذلك قدير وبالإجابة جدير.

وفي هذا القدر كفاية، وإلىٰ لقاء آخر إنْ شاء الله.

الدَّرس الثَّاني

خواطر إيمانيَّة من آيات قرآنيَّة

(المجلس التَّابعي الأوَّل)

بعد تلاوة مباركة عطرة لأحد المُقرئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ [الروم: 20-22]، قال الشَّيخ الجليل مُرَبِّي المُريدين وقُدوة السَّالكين عليّ تابعيّ بن الصَّادق الحسني الشَّريف رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمُرْسَلين، وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليمًا، **أمَّا بَعْدُ**:

يقول الله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21]، إنَّ من شأن هذه الآية الكريمة أنْ تكون نُورًا يُنير طريق الزَّوجين، وهداية يهتديان بها، وفي الآية عِبْرة وعِظة لهما تصلهما بالله ﷻ، وتربط صلتهما بربِّهما، وتجعلها صِلة متينة قوية تهتزُّ لها القلوب، وتتحرَّك لها المشاعر حماية لها، وقد بيَّن الحقُّ ﷻ الهدف من هذه الرَّابطة الزَّوجية المُقدَّسة في قوله: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾، فلماذا نسكن إليها؟ وعلىٰ أيِّ أساس نسكن إليها؟ نسكن إليها علىٰ أساس أنَّها خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ الله، وعلىٰ أنَّها نِعمة مِن قِبَل الله، والنِّعمة يجب أن يُشْكَرَ عليها المُنْعِمُ باللِّسان وبالجَنان وبالجوارح.

فالزَّوجة نِعْمة أكرمنا بها الله ﷻ، وهو الذي خلقها لنا، وقال بشأنها إنَّها آية، فالشَّأن في الزَّواج أن يكون من هذا المنطلق أمْرًا يُوصِل إلىٰ الله، وليس أمرًا يُشغِل ويُلهي عنه، أو سببًا في الغفلة والبُعد عن الحقِّ ﷻ، وعلىٰ العبد أنْ تكون رابطته بمولاه قوية دائمة، والمفروض أنَّ هذا الزَّواج يُقَوِّي فينا الإيمان، وإذا قوي نور الإيمان وسرىٰ في القلب، وامتلأ القلب نورًا، فاض وطفح ذلك النُّور علىٰ الجوارح، فأصبحت القلوب في معيَّة الله، والجوارح تعمل بمقتضىٰ الإيمان وبما يُرضي الله، وهذا هو الذي يجب أن يكون.

ولكن نحن شأننا من الأولاد ومن الأزواج ومن الأموال ومن الأملاك أن نتلهَّىٰ بها عن الله، ونبتعد بها عن الحقِّ ﷻ، ونفتتنَ بها، ونترك الواجبات والفرائض والقُربات التي تُقرِّبنا إلىٰ الله بناء علىٰ أنَّنا مشغولون بهذه النِّعم عن المُنْعِم، وهذا كلُّه من سوء فهمنا وقِصَر نظرنا، وهذا التَّصرف يُعَدُّ خطأ مِنَّا، لأنَّ المولىٰ تبارك وتعالىٰ ما خلقك في هذا الكون إلاَّ لتحقيق العبودية في نفسك لله ﷻ، ولذا يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، وكيف تُحقِّقُ هذه العبودية وأنت غافل عن الله، ومحجوب عنه، ومشغول عنه بالنِّعَم التي أنعم بها عليك، والتي كان من المفروض أنْ تكون سببًا يصِلك بربِّك، ولا يقطعك عنه.

وإذن فالزَّواج نِعْمة أنعم الله ﷻ بها علىٰ الإنسان إذا فهِم سِرَّ هذه النِّعمة وقدَّرها حقَّ التَّقدير، لأنَّ الله تبارك وتعالىٰ عَدَّها آية من آياته فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21]، ونحن نقرًا هذه الآية ونحتجُّ بها علىٰ غيرنا من النَّاس ونُحاكِمُهم بها، ولكنَّنا لا نحتجُّ بها علىٰ أنفسنا، ولا نَتَّعِظُ بها، ولا نأخذ منها العِبَرَ.

ولم يتساءل أحد منَّا فيقول لنفسه: لقد أكرمني الله ﷻ بزوجة، فهل شكرتُه علىٰ هذه النِّعمة؟ وهل راقبتُه في هذا الإكرام؟ وهل رفعتُ هِمَّتي علىٰ هذه النِّعمة

إلىٰ المُنْعِم؟ وهل اشتغلتُ بالمُنْعِم علىٰ النِّعمة حتىٰ تزداد هذه النِّعمة؟ لأنَّ الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7]، وهل استعملتَ هذه النِّعمة فيما يُرضي الله؟ وهل قاربتَ هذه الزَّوجة طاعة لله؟ وهل سكنتَ إليها محبَّة في الله؟ ولماذا لا نُلْقي علىٰ أنفسنا مثل هذه الأسئلة؟ لأنَّنا ما زلنا لم نقرَا هذه الآية القراءة المطلوبة.

إذن القرآن ليس حُجَّةً علىٰ غيرك فقط، بل من المنطلق يكون حُجَةً عليك أنت، أي أن القرآن حُجَّةٌ علىٰ التَّالي وعلىٰ القارئ نفسه، ولهذا قال الإمام البوصيري رَحِمَهُ اللَّهُ:

أستغفرُ اللهَ مِن قَوْل بلا عمل لقد نسبتُ به نسْلًا لذي عُقُم
أمَرْتُك الخَيْرَ لكنْ ما ائتمرتُ به وما استقمتُ فما قولي لك اسْتَقِم

لقد كان من المفروض أنَّ كلَّ آية من آيات كتاب الله تمرُّ علىٰ المؤمن يُحاكِم بها نفسَه، ويَحكم بها عليها، ويرىٰ ما هو مقامه في هذه الآية؟ وهل أدركها وفهِم معناها وتفاعل معها، وعمِل بمقتضاها؟ وهل طُبِّقَتْ هذه الآية في أقواله وفي أفعاله وفي أحواله وفي سلوكياته؟ فإذا لم تظهر ثِمار هذه الآية في نفْسِك لا قولاً ولا فعلا ولا سلوكًا، ولم تُقَرِبْك إلىٰ الله، ولم يهتزْ قلبك إلىٰ مولاك فتحِبُّه وتعشقُه، ولم ترفعْ هِمَّتك عن الكائنات كلِّها لله، فأنتَ ما زلتَ لم تقرَا الآية ولم تفهم معناها، ولم تُدْرِكْ سِرَّها وحقيقتها، رغم أنَّك تتلوها مِرارًا وتِكرارًا، وتقول: أنا أحفظ القرآن وأتلوه، وأنت في الحقيقة لم تقرأه، ولستَ معه، بل أنتَ مع نفْسك ومع هواك.

وهكذا إذا نظرنا إلىٰ نِعمة الزَّوجة التي أكرمنا بها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نرىٰ أنَّنا لم نعرف كيف نتصرَّف تجاهها، وكيف نتعامل معها لله، وقد قال الحقُّ جَلَّ جَلَالُهُ: «﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: 15]، ولو تساءلنا لماذا جاءت النِّعم مِن قِبل الله جَلَّ جَلَالُهُ ؟ لقد جاءت للاختبار والامتحان، فأنت في قاعة الامتحان، وقد وضعك مولاك مع زوجتك وأولادك وأموالك ليمتحنك، وقال لك:

لقد جعلتُ لك الأموال والأولاد والزَّوجة فتنة، فهل تُقبِل عليهم، أم تُقبِل عليَّ؟ وهل تتَّجه إليَّ، أم تتَّجه إليهم؟ وهل تخدمهم في سبيلي، أم تخدمهم في سبيلك؟ وهل تقوم بشؤونهم من أجل هواك، أم من أجل محبَّتي أنا الذي وهبتُهم لك؟ فماذا فعلتَ يا ترىٰ أنتَ؟ لم تفعلْ أمرًا حسنًا، فإنَّك تخدِمهم وتُحْسِنُ إليهم، وتشتغلُ بهم، وتَفْتَتِنُ بهم، وتبتعدُ بهم عن الله، ومن أجلهم ترتكبُ المُحَرَّمات، وتعتريك الغفلات، وتُضيع الأوقات، وتخسر العمر، وكلُّ ذلك في سبيل نفْسِك، وليس في سبيل الله.

ولن يُبارِك الله في أمْر يشغل العبد عن مولاه، وكلُّ ما يشغلك عن ربِّك فلا بركة ولا خير فيه، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إلاَّ مَا كَانَ مِنْهَا للهِ عزَّ وَجَل**»[1]، ومِن هنا يجب أن تكون كلُّ المجهودات التي تقوم بها من أجل الأموال أو الأولاد أو الزَّوجة أو كلِّ المملوكات خالصة لله، بحيث ترفع قلبك عن كلِّ النِّعَم إلىٰ الله، لأنَّها نِعَمٌ مِن المُنْعِم إليك لتترقَّىٰ بها إليه، ولا ينبغي أن تحجبك عنه.

وهَبْ أنَّ أحدًا أهدىٰ إليك هديَّة ثمينة فاشتغلتَ أنتَ بتلك الهدية ولم تُعْطِ لمَن أهداك أيَّ قيمة وأيَّ اعتبار، فهل يليقُ منك هذا التَّصرُّف؟ إنَّ هذا العمل ليس من المروءة في شيء، وليس من الأخلاق الفاضلة، بل لا يُقْبَلُ حتَّىٰ في المعاملات الإنسانيَّة، وهو يدلُّ علىٰ لُؤْم صاحبه، وكان المفروض عليك أن تشتغلَ وتهتمَّ وتُعَظِّم مَنْ أكرمك بالهديَّة، ولا تنساه، ولا تشتغل عنه بهديَّته التي أهداها إليك، وهذا هو الذي نفعله نحن في معاملاتنا مع الحقِّ ﷻ حينما نشتغل بنِعَمه ونغفلُ عنه، وهو القائل وقوله الحقُّ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ **[النحل: 53]**.

فكلُّ النِّعَم التي أنتَ فيها هدايا من الحقِّ إليك، وأنت مشغول بها عن الله، والعجيب أنَّك تطلب منه أن يُقَرِّبَك إليه، وهو لم يقطع عليك القُربات أبدًا، بل في كل لحظة من الزَّمن يمدُّك بما يُقرِّبُك إليه، ولكنَّك أنت تفعل العكس فتستعمل ما

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان بهذا اللَّفظ.

يُقرِّبك منه فيما يُبعدك عنه، وتزعم أنَّك فطِنٌ وتفقه أمور دينك، ولكن تصرُّفك هذا يدلُّ علىٰ أنَّك مُغَفَّلٌ، لأنَّ الذي يفقه دينه هو الذي يفقه ما في القرآن، ويُبصِرُ ما يُقرِّبه إلىٰ الله، ويسمعُ صوت الحقِّ الذي يُناديه في كل نِعَمه التي يُنعم بها عليه، وكلُّ نِعَمِ الحقِّ تناديك إليه، فيدك عندما تُحَرِّكها تناديك وتقول لك: أنا نِعمة الحقِّ، أنا عَطِية ربِّك، أنا خَلْقُ مولاك، أنا قُرْبة لله، فكن مع الله ولا تكنْ معي، ولكنَّك لا تسمع، والحقُّ يُناديك إليه، أفلا تُجيب نداء الله؟ وكلُّ ما يطرًا عليك ليلا ونهارًا هو من الله، وقد قال المولىٰ تبارك وتعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: 42]، أي من يحفظكم من الرَّحمن سوىٰ الرَّحمن، وهل يقدرُ أحدٌ غيره علىٰ حفظك؟

إنَّ كلَّ ما يطرًا عليك هو من الله، وكلُّ النِّعم تناديك إلىٰ ربِّك لتكون من الشَّاكرين، ولتكون من الزَّاهدين في النِّعمة والرَّاغبين في الله، لأنَّ النِّعمةَ لا قيمة لها بالنِّسبة للمُنْعِم، وهل هناك بديل عن الله؟ فالله مالِكنا في الدُّنيا، وهو المالِك لنا يوم الدِّين، ونحن ندخل في الصَّلاة فنقول: مالك يوم الدِّين، ولكنَّها كلمة يقولها اللِّسان ولا يشعر بها الجَنان، ولا تهتزُّ لها الأركان، وكأنَّها مُجرَّد كلمة، لأنَّنا افتقدنا التَّربية الرُّوحية الذَّوقية، وافتقدنا الشُّعور، واكتفينا بالإيمان التَّقليدي، أو الإيمان العقلي، ولم نهتمْ بالإيمان الذَّوقي الشُّعوري، ولم نَسْعَ في البحث عنه، والعاقل الفطِن فينا من يقول: أنا أحفظ سِتًّا وستِّين عقيدة، وأعرِف أن لله وللرُّسل صِفات واجبة وصِفات مستحيلة وصِفات جائزة، ويكتفي بذلك.

ولكنَّني أقول لك: وهل عرفتَ هذا في نفسك؟ وربُّك يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53]، وقد بيَّن الله ﷻ لك الآيات في الآفاق فلم تقبلها، وبينَّها لك في نفْسك فلم تقبلها أيضًا، ولم تُرِدْ الفهم عليه، وقال لك: أنا المشهود، وأنا الموجود، وأنا المعبود، وأنا القادر القويُّ، وأنا اللَّطيف الرَّحيم

... ولكنَّك لم تفهمْ مُرادَ ربِّك منك، لأنَّك مُدْبِرٌ عن مولاك، ومشغول بدنياك ومُقبِل عنها بكلِّيتك.

والحال أنَّ الدُّنيا خُلِقتْ للعبد، ولم يُخْلَقْ هو لها، وقد خَلَقَ الله ﷻ الدُّنيا وأكرمك بها لتكون وسيلة للآخرة، ولذا جاء في الأثر: «نعمت الدُّنيا مَطِيَّةُ المؤمِن عليها يبلغُ الخيرَ، وبها ينجُو مِن الشَّرِّ»[1]، وجاء في الأثر أيضًا: «الدُّنيا مَطِيَّةُ الآخرة»، وقال الحسن البصري رحمه الله: «الدُّنيا مَطِيَّة المؤمِن إلىٰ ربِّه، عليها يرتحلُ المؤمنُ إلىٰ ربِّه، فأصلِحوا مَطاياكُم تُبَلِّغكم إلىٰ ربِّكم»[2]. فالدُّنيا بمثابة المطيَّة التي تُسافِر علىٰ متْنها لتسير إلىٰ الآخرة، فهل رحلتَ من الدُّنيا إلىٰ الآخرة، أمْ تخلَّفْتَ عن الرَّكْب واشتغلتَ بالمطيَّة عن السَّير والرَّحيل، وبقيتَ تدور حول الرَّاحلة وتُعِدُّها وتُصلِح من شأنها، ولكنَّك لم ترحل عليها للآخرة؟

لقد أعطاك الله ﷻ الدُّنيا وأكرمك بها لتستعملها مطيَّة للآخرة، ولم يُعطها لك لتبقىٰ معها، والزَّمن يمرُّ بسرعة، والسَّاعات والأيّام واللَّيالي ماضية بك رغْم أنفك، فاخْرُج من هذه الحالة وأقبل علىٰ مولاك الذي منحك الدُّنيا لتعمل فيها صالحًا وتفوز في آخرتك بالرِّضا والقبول، واعلمْ أنَّك إذا اشتغلتَ بالدُّنيا ونسيتَ ربَّك فلا جزاء لك عنده، لأنَّك كنتَ مع المطيَّة ولم تكن معه، وكنتَ للمطيَّة ولم تكن له، وكنتَ مشغولاً بدنياك عنه ومفتونًا بها عنه.

إذن علىٰ العبد أنْ يستعمل النِّعم في سبيل الوصول إلىٰ مرضاة المُنْعِم، وينبغي للمُسلِم أن يكون مُنقادًا إلىٰ ربِّه، طائعًا له، ومُقبِلا عليه في كلِّ أنفاسه، لأنَّ الإسلام يعني الانقياد الكامل لله ﷻ بجميع الجوارح، ولن تنقاد هذه الجوارح إلاَّ إذا انقاد الجَنَان وتطهَّر من حُبِّ دنس الدُّنيا وزهد فيها، ومسَّ حبُّ الله جلَّ جلاله شِغاف ذلك القلب فامتلأ نورًا، وأفاض ذلك النُّور علىٰ الجوارح حُبًّا فأضحتْ طائعة ذليلة مُستسلِمة ومنقادة لمولاها جلَّ في عُلاه.

---

(1) وجاء أيضًا في الأثر: «لا تسبُّوا الدُّنيا فنِعْمَ مطيَّة المؤمن». (جامع الكتاب).

(2) ذكر هذا الأثر أبُو نُعيم الأصبهاني في حِلية الأولياء.

وحُبُّ الله ﷻ ينفرُ بشدَّة من القلوب التي يرتع فيها حُبُّ الدُّنيا، والقلبُ لا يسع حُبَّ الله وحُبَّ الدُّنيا في آن واحد، ولذا قال الله ﷻ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: 4]، ولا يمكن أنْ يسكُن حُبُّ الله في قلب مَلِيءٍ بحُبِّ الدُّنيا، فقد جاء في الحديث: «**أتىٰ النَّبيَّ ﷺ رجلٌ، فقال: يا رسولَ الله: دُلَّني علىٰ عمَل إذا أنا عملتُه أحَبَّني الله وأحبَّني النَّاس، فقال رسول الله ﷺ: ازْهَد في الدُّنيا يُحِبُّك اللهَ، وازهَد فيما في أيدي النَّاس يُحِبُّوك**»[1].

إنَّ تحقيقَ العبودية لله ﷻ هي الغاية القُصْوىٰ، وهو الهدفُ الذي يَنْشُدُهُ العبدُ ويسعىٰ إليه، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، وقد يشكو الإنسان مِن الغفلة، ومِن تسلُّط نفسه عليه وغواية الشَّيطان له، ولكنَّ الله ﷻ يقول مُخاطِبًا هذا الشَّيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 65]، وأنت تشكو من استيلاء الشَّيطان علىٰ قلبك، لأنَّك خرجتَ عن مقام العبودية، فقيَّضَ الله لك شيطانا عقوبة لك.

وقد قال المولىٰ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: 36]، فالحقُّ جلَّ جلاله هو الذي بعث لك الشَّيطان وجعله لك قرينًا، وتلك عقوبة لك، وقد أعطاك الله عز وجل مقام العبودية، وهو السِّلاح الذي يحميك من كلِّ ما يُبعِدك عن مولاك، فإذا انعزلتَ عن هذا المقام استولىٰ عليك الشَّيطان، وليس لك حماية من غوايته إلاَّ بالإنابة إلىٰ ربِّك، والتَّوبة إليه، والتَّحقق بمقام العبودية له، فحينئذ لا يكون للشَّيطان عليك سبيلاً، لأنَّ الله ﷻ يُخاطِب إبليس اللَّعين فيقول: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: 42].

إذن مِن خِلال الكلام الذي ذكرناه يجبُ علىٰ المُسلم أنْ يتفكَّرَ ويتدبَّر في الآيات القرآنيَّة الكريمة وفي الأحاديث النَّبوية الشَّريفة، وأنْ يُراعي النِّعم التي ينعمُ الله ﷻ عليه بها، فلا يستعملها إلاَّ في مرضاة ربِّه الذي منحه إيَّاها ليختبِره ويمتحنَه

(1) رواه ابن ماجه في سُنَنه بهذا اللَّفظ.

بها، فالله تبارك وتعالىٰ يمنحُك أنواعًا من النِّعم لكي يرىٰ هل تبقىٰ مع النِّعم، أم ترفع هِمَّتك من تلك النِّعَم إلىٰ المُنْعِم؟

إنَّ النِّعَم اختبار لك من الله ﷻ لتقوىٰ عليك الحُجَّة يوم القيامة، فعليك أنْ تحذرَ من أنْ تحجبك النِّعم عن المُنْعِم، فَتَفْتَتِنَ بتلك النِّعَم وتشتغلَ بها وتغفلَ عن مولاك، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: 15]، فالأموال والبنون فتنةٌ لك وبلاء ومِحْنة واختبار يختبرك الله ﷻ بهما، وعليك أن تُؤْثِرَ محبَّة الله وطاعته علىٰ محبَّة مالك وولدك، ولكن النَّفْس والشَّيطان يُحَرِّضان الإنسان ويَحُثَّانِه علىٰ جمْع حُطام الدُّنيا والاشتغال بالأموال، ولكن كلَّ ذلك هو عند مَن؟ ومَن يملِك هذا يا مُغَفَّل؟ ألم تقرَا قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26]، فالذي تطلبُ منه هو الذي يجب أنْ تكونَ معه، وماذا تطلب؟ إذا كنتَ تطلبُ المُلْك فكن مع مالِك المُلْك؟ وإذا كنتَ تطلبُ العِزَّ فكن مع ربِّ العِزَّة، فكلُّ ما تطلبُه هو عند مولاك.

إنَّ من طبيعة المؤمِن أن لا يقدم علىٰ عمل حتَّىٰ يعلَم حُكْم الله فيه، كما قال ابن عاشر رَحِمَهُ اللَّهُ في نظمه:

ويوقفُ الأمورَ حتَّىٰ يَعْلَمَا ما اللّهُ فيهنَّ به قدْ حَكَمَا

وهل الحُكْمُ علىٰ الأمْر يتمثَّل في معرفته هل هو حلال أم حرام؟ وهل يكفي ذلك؟ لا، بل يجب أن نعرف هل ذلك الأمر حلال أم حرام؟ ومن المانِح والمُعطي له؟ وماذا يستحق مِنَّا؟ أي ينبغي أن نعرِف جميع جوانب الحُكْم علىٰ الأمر لكي يكون الحُكْمُ صحيحًا، لأنَّ الحُكْمَ عن أمر ما فَرْعٌ عن تَصَوُّرِه، أي أنَّ كلَّ أمر لا تتصوَّره تصوُّرًا كاملاً لا تستطيع أنْ تُصْدِر عليه حُكْمًا، واعْلَمْ بأنَّ ما أحلَّه لك الشَّرع هو حلال إنْ فعلتَه لله ﷻ، فإن فعلتَه لنفْسك فلا يكفي ذلك، ولن ينفعك، وهل يرفعك الحلال إذا فعلتَه لنفْسك؟ لا، إنَّما يرفعك الحلال إذا باشرته طاعةً لمولاك، وفعلتَه مرضاةً لربِّك.

وكيف تأخذ نِعمة ربِّك وتنسبُها لنفْسك، وتقيمُ معها وتغفلُ عنه؟ وهل هذا أمر صحيح ومقبول؟ لا، وهل يكفي أنْ تعرِف بأنَّ الأمر مباحٌ فتأتيه؟ لا، إنَّ ذلك غيرُ كافٍ، لأنَّك إذا فعلتَ أمرًا بناء علىٰ أنَّه مُباح فقط، فهذا يُنْجيك من الإثم، ولكنَّه لن يُرقِّيك، ولنْ يُقَرِّبَك إلىٰ الله، ولذلك ربط النَّبيُّ ﷺ جميع الأعمال بالنِّية في قوله: «**إنَّما الأعمال بالنِّيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئ ما نوىٰ، فمَن كانتْ هجرتُه إلىٰ الله ورسوله فهجرتُه إلىٰ الله ورسوله، ومَن كانت هجرتُه لدنيا يُصِيبُها أو امرأة يتزوجُها فهجرتُه إلىٰ ما هاجر إليه**»[1].

ومِن خلال هذا الحديث يتبيَّن أنَّ لك من عملِك مالك من نيَّتك، فإذا قلتَ مثلاً: إنِّي أكلتُ لأشبعَ، فهل هذه النِّيَّة طيِّبة؟ وهل أثاب عليها؟ لا، لا ثواب عليها إلاَّ إذا كانتْ لي نيَّة شرعيَّة في ذلك الأكل، لأنَّ نِيَّة الشَّبع هي نيَّة نفْسيَّة، والمفروض أنْ تكون تلك النِّيَّة شرعيَّة، لأنَّ الشَّرع يربطك بربِّك في كلِّ أقوالك وأفعالك وسلوكياتك، ويربِط بين ظاهرك وباطنك، كما يربِط بين قلبك ولسانك، وبين عملك وحالك.

لأنَّ مُقتضىٰ الإيمان اعتراف باللِّسان وتصديق بالجَنان وعملٌ بالأرْكان، وهذه القضيَّة تكون سارية في أقوالك وأفعالك وأحوالك وسلوكياتك، فإذا أسلمتَ وجهك لله وآمنتَ به فأنت علىٰ نور من ربِّك، قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: 22]، ومَن لم يعتصمْ بالله ويستسلِم لمولاه ويؤمِن به فلا نور له يحميه من الوقوع في المعاصي واقتراف الذُّنوب، ولذلك يقول الرَّسول ﷺ: «**لا يزني الزَّاني حين يزني وهو مؤمِن، ولا يشربُ الخَمْر حين يشربُها وهو مؤمِن، ولا يسرقُ السَّارِقُ حين يسرقُ وهو مؤمِن**»[2].

وهذا يبيِّن أنَّ الإيمانَ يمنعُك من الوقوع في المعاصي وارتكاب الفواحش، ويجب عليك أنْ لا تقدم علىٰ أمر حتَّىٰ تعلمَ حُكْم الله فيه، وحتَّىٰ تعلمَ هل هو

(1) رواه البخاري ومُسلم وأبو داود وغيرهم، واللَّفظ لأبي داود.

(2) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، واللَّفظ للبخاري.

حلال أم حرام، وبعد ذلك هل هو قُربة إلىٰ الله أم بعدٌ عنه، فانظر من خلال هذا الكلام الذي قلناه كم نحن بعيدون عن معرفة الله، ولذا يجب علينا أنْ نترقَّىٰ مِن الإيمان التَّقليدي والعقلي إلىٰ الإيمان الذَّوقي الشُّعوري، هذا الإيمان الذي كان عليه الصَّحابة ﷺ الذين عاشوا الإسلام قَلْبًا وقالِبًا، وتحققُوا بمعانيه في أقوالهم وأفعالهم، وفي معاملاتهم وسلوكياتهم.

إذن فهذه نصيحة من الله لي ولكم أجراها الحقُّ ﷻ علىٰ لساني، وعلينا بالعمل بهذه النَّصيحة الرَّبَّانيَّة الخالِصة، وأن نعمل جاهدين لتغيِّير ما بأنفُسنا ليغيِّر الله ما بنا من الأحوال، والله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

وأسأل الله لي ولكم الهِداية والتَّوفيق، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

الدَّرس الثَّالث

خواطر إيمانيَّة مِن آيات قرآنيَّة

(المجلس التَّابعي الثَّاني)

بعد تلاوة مباركة لأحد المقرئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [سورة العصر]، قال العارف بالله الشَّيخ علي تابعي بن الصَّادق رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمُرْسَلين، وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليمًا، **أمَّا بَعْدُ**:

إنَّ الوقتَ جوهرةٌ غاليةٌ لا تُقَدَّر بثمن، ولا تُعَوَّضُ إذا ضاعتْ، وكلُّ نفَسٍ من أنفاس العبد دُرَّةٌ ولؤلؤةٌ لا تُسترجَعُ ولا تُعَادُ إنْ ذهبتْ منه، ولكلِّ ذلك أقْسَمَ الله ﷻ بالوقت لعظمة قيمته فقال: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، وحتَّىٰ وإنْ قال بعضُ المُفَسِّرين بأنَّ المقصود هي صلاة العصر، فصلاة العصر تعني الوقت، والمعنىٰ واحد، ومَن الذي هو في خُسْرٍ؟ إنَّه ذلك الذي يُضَيِّعُ الوقتَ، ولا يحافظ عليه، ولا يهتمُّ به، ولا يغتنِمه، وقد أوصانا رسول الله ﷺ باغتنام الوقت فقال: «**اغتنمْ خَمْسًا قبلَ خمْسٍ: شبابَك قبل هرمك، وصحَّتَك قبل سقمك، وغِناك قبل فقْرك، وفراغَك قبل شُغلك، وحياتَك قبل موْتك**»[1].

وقد استثنىٰ الحقُّ ﷻ بعد هذا فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: 3]، أي الذين يستغلُّون وقتهم في الإيمان والعمل الصَّالح والتَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصَّبر، فالوقت يجب أنْ يُقَسَّم بين هذه الأمور

(1) رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهما.

الجليلة الأربعة، ومنها الإيمان، أي ما يزيد في إيمانك وما يُقَوِّيه كطلب العِلْم ومدارسته، ومُجالسة العلماء والصَّالحين، وصُحبة العارفين بالله والصَّادقين معه، فيجب علىٰ المؤمن أنْ يكون راغبًا في مثل هذه المجالس، وأن يطرُق أبواب العلماء وأبواب الصَّالحين، ويتذلَّل علىٰ أعتابهم لينال من بركاتهم، فإنَّ خِدْمَتَهم بركةٌ، ومُجالستَهم رحمةٌ، وكلامهم دواء يُشْفِي القلوب العليلة، ونظراتهم مَرْهَمٌ يُبْرِي السِّقام، وورد في الأثر: «إن لله رجالاً مَن نظر إليهم سعِدَ سعادة لا يشْقَىٰ بعدها أبدًا».

إذن ما الوقت إلاَّ إيمان وعمل صالح سواء كان أخرويًّا أو دنيويًا تبتغي به مرضاة الله، لأنَّ العِبرةَ ليستْ بوجود العمل، وإنَّما العِبْرة بنيَّتك ومقصودك بالعمل، وقد ورد في الأثر: «النَّاسُ كلُّهم هَلْكىٰ إلاَّ العالِمين، والعالِمون كلُّهم هَلْكىٰ إلاَّ العامِلين، والعامِلون كلُّهم هَلْكىٰ إلا المُخْلِصين، والمُخْلِصون علىٰ خَطَرٍ عظيم»، ولماذا كان المُخْلِصُون علىٰ خطر عظيم؟ لأنَّ الشَّيطان يتدخَّل في الإخلاص نفسه فيُفْسِده، وقد تغشُّ النَّفْسُ صاحبَها في العمل، وتدسُّ له فيه الدَّسائس، وتكيدُ له المكائد التي لا يشعر بها، فتغُرُّه وينسبُ العملَ إلىٰ نفْسه ولا ينسبِه إلىٰ ربِّه الذي منَّ به عليه ووفَّقه إليه.

إنَّ الله ﷻ قد أقْسم في هذه السُّورة بالعصْر وهو الوقت بأنَّ الإنسان أي جنس الإنسان في خُسران، واستثنىٰ من ذلك ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: 3]، لأنَّ هؤلاء إمَّا أن يُزَوِّدُوا إيمانهم بالعِلْم، فالعِلْم يزيدُ في الإيمان ويُقَوِّيه، وإمَّا أنْ يُزَوِّدُوه بالعمل الصَّالح من الطَّاعات والعبادات وسائر أنواع البِرِّ، وإمَّا أنْ يعمَلوا عملاً مُتْقَنًا يُحِبُّه الله فيكسِبون به كسْبًا حلالاً طيِّبًا، وقد قال الرَّسول ﷺ: «**إنَّ اللهَ** ﷻ يُحِبُّ إذا عمِل أحدُكم عملاً أنْ يُتْقِنَهُ»[1].

وعندما تتحرَّىٰ الحلال وتطلبُه تطيب حياتك، ويبارك الله ﷻ في كلِّ ما يُحيط بك، وأمَّا إذا كنتَ لا تطلب الحلال الطيِّب ولا تتحرَّاه، وتغشُّ في عملك وتسرق أوقاته، ولا تخلُص فيه، فإنَّ المقْتَ -والعِياذ بالله- يحلُّ بساحتك،

(1) رواه الطَّبراني في المعجم الأوسط والبيهقي في شُعَب الإيمان.

ولا ترىٰ بركة في كلِّ شؤونك، ولا تجد للطَّاعة لذة ولا ذوقًا، وتلك عقوبة عاجلة من الله، وهذا حال كلُّ مَن تكون هِمَّتُه متعلِّقة بالمادِّيات، ويعتقد أنَّه إنْ تحصَّل علىٰ هذه المادِّيات فقد وصل إلىٰ أعلىٰ عليِّين.

ولكنَّه في الحقيقة قد وصل إلىٰ أسفل السَّافلين، لأنَّه لا قيمة للدُّنيا عند الله، ولا تعدِل عنده شيئًا، ولذا قال الرَّسول ﷺ: «**لو كانتِ الدُّنيا تعْدِلُ عند اللهِ جناحَ بعوضةٍ ما سَقَىٰ الكافِرَ منها شربةَ مَاء**»[1]. وإذا كانت الدُّنيا بكلِّ زخارفها لا تزِن عند الله جناح بعوضة، فأيُّ قيمة عند الله لمَن يُعَلِّقُ بها هِمَّتَه ويَرغبُ فيها بشَغَفٍ ويُؤْثِرها علىٰ آخرته؟ وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ قوله: «**إنَّه ليأتي الرَّجلُ العظيمُ السَّمِينُ يومَ القيامةِ لا يزِنُ عند الله جناحَ بعوضَةٍ، وقال: إقرأوا: فلا نقيمُ لهم يوم القيامة وَزْنًا**»[2].

وهَبْ أنَّك تملِك مالا كثيرًا، فما هو نصيبك من هذا المال؟ ليس لك من مالك إلاَّ لقمة في بطنك تسدُّ بها رمقك، وقطعة قماش علىٰ بدنك تسترُ بها عورتك، وموقع قدمَيْكَ إنْ كنتَ واقفًا وقَدْرَ طولك إنْ كنْتَ نائمًا مُتَمَدِّدًا، ولن ينفعَك من مالك إلاَّ صدقة تصدَّقتَ بها، أو عملاً صالحًا تقرَّبتَ به إلىٰ ربِّك بمالك هذا، ولذا قال الرَّسول ﷺ: «**يقولُ ابنُ آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلاَّ ما تصدَّقتَ فأمضيتَ، أو أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ**»[3].

وافرض أنَّك تملك بيتًا يشتمل علىٰ عشرين غرفة، فكم من غرفة تسكنها؟ وكم من مساحة تشغلها من هذا المسْكن؟ ليس لك من مسكنك هذا إلا مقدار طولك وعرضك، وما سواه ليس بمسكن لك، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**لا تبنُوا مالا تسْكُنون، ولا تجمعُوا مالا تأكُلون، واتَّقوا اللهَ الذي إليه تصِيرُون**»[4].

---

(1) رواه التِّرمذي في السُّنن.

(2) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(3) رواه التِّرمذي بهذا اللَّفظ.

(4) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء.

ومن هنا علىٰ العبد أن يسأل الله ﷻ الكفاف والعفاف، ولذا قال (عليه الصَّلاة والسّلام): «**قد أفلحَ مَن هُدِي إلىٰ الإسْلام، ورُزِقَ الكفافَ وقنعَ به**»[1]، وكان ﷺ يدعو ربَّه فيقول: «**اللَّهُمَّ اجعلْ رِزْقَ آل مُحَمَّدٍ كفافًا**»[2]، وكفاية العبد هو قوت يومه، وليس قوت عامه، ولذلك يقول الرَّسولُ ﷺ: «**مَن أصبحَ مُعافىٰ في بَدنِه، آمنًا في سِرْبه، عنده قوت يومه، فكأنَّما حِيزتْ له الدُّنيا**»[3]، فمن ضمن الله ﷻ له قوت يومه فذلك الكفاف، لأنَّ اليوم الآخر ليس له، ولا يعرِف هل سيبقىٰ لغد أم لا، ولكن طول الأمل في الدُّنيا، وعدم الرَّغبة في الآخرة، ونسيان الموت، كلُّ ذلك يجعلنا نقع في هذه المشاكل.

ولا بدَّ لمن يرغبُ في الآخرة من أمريْن هما دوام اليقظة وعدم الالتفات إلىٰ العوائق والعلائق، لأنَّ الذي يبقىٰ مرتبطًا بهما لن يسلُكَ سبيل الله علىٰ الإطلاق، ومن هذا المنطلق يجب علىٰ المُريد أن يُخرِجَ حُبَّ الدُّنيا من قلبه ليستطيع إنفاقها في سبيل الله، ويتحلَّىٰ بخُلُقِ الكَرَم، لأنَّ الكرَمَ شُعبةٌ من شُعَب الإيمان مَن تحلَّىٰ بها كان مِن أهل الجنَّة، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**السَّخاءُ شجرةٌ من شجر الجنَّة أغصانُها متدلِّية في الدُّنيا، من أخذَ بغُصْن منها قاده ذلك الغُصنُ إلىٰ الجنَّة، والبُخل شجرة من شجر النَّار أغصانُها متدلِّية في الدُّنيا، مَن أخذ بغُصن منها قاده ذلك الغُصْنُ إلىٰ النَّار**»[4].

وينبغي علىٰ المريد أن يفنىٰ عن جِنسه من النَّاس، فلا يطمع فيهم ولا يستأنس بهم، لأنَّ العبد لا يمكن أن يجمع بين أنسه بالله وأنسه بالنَّاس، وكما قيل: «الاستئناسُ بالنَّاس من علامَات الإفْلاس»، وممَّا يُلاحظُ أنَّ المُريد الصَّادق في هذه الطَّريقة الميمونة بمجرَّد أن ينتمي إليها ويصحب أهلها ويأخذ عنهم

(1) رواه ابن ماجه في السُّنن بهذا اللَّفظ.
(2) رواه ابن حِبَّان في صحيحه.
(3) رواه الطَّبراني في المعجم الكبير، والتِّرمذي وابن ماجه وغيرهم، واللَّفظ للطَّبراني.
(4) رواه البيهقي في شُعب الإيمان.

مبادئها، يحصل له انقلاب في حاله، ويستوحشُ من النَّاس، ولا يستأنس إلا بالله، ويشعرُ بجفوة من الخَلْق له ولاسيما أهله وعائلته، وتحدث له انتكاسة في الخَلْق، ولذا قال الله ﷻ: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: 68]، وكأنَّ الله يقول لك: ما دمتَ قد أقبلتَ عليَّ بصدق فإنِّي سأحوشك إليَّ من الأهل ومن جِنسك، وأجرِّدك من الكلِّ لأردَّك إليَّ، وأصْطَنِعُكَ لنفْسي، وأحَبِّبُ إليك الاستئناس بي، ولا أرضىٰ لك الاستئناس بغيري.

وقد لا تعي ولا تفهم حقيقة هذه الوضعيَّة، ولكن عليك بالصَّبر الجميل والمداومة علىٰ الإقبال علىٰ مولاك والاستئناس به، وإيَّاك والاستئناس بالخَلْق، فعسىٰ الله أنْ يُحِبَّكَ ويحقِّقَ فيك الأنسَ به، ويُنزل حُبَّك في الأرض فَيُحِبُّك أهلُها، ولذا قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبدا دعا جبريلُ فقال: إنِّي أحِبُّ فُلانا فأحِبَّه، فيحبُّه جبريلُ، ثم يُنادي في السَّماء فيقول: إنَّ اللهَ يحِبُّ فُلانا فأحِبُّوه، فيحِبُّه أهلُ السَّماء، قال: ثُمَّ يُوضَعُ له القبول في الأرض ...**»[1]. ومِن علامات أهل الله المُقْبِلين عليه الفناء عن جِنسهم وفِلسهم، لأنَّه ليس لهم للسِّوىٰ التفاتٌ وليس لهم للغير مَطْلَبٌ، وكما يقول سيِّدي أبو مدين رضي الله عنه:

ليسَ لهم للسِّوىٰ التفاتُ كيف وقدْ شَاهَدُوا سَنَاهُ

ومَن التفتَ لغير الله فهو دليل علىٰ أنَّه لم ير نور الله، ولو رأىٰ ذلك النُّور، لما قبِل أنْ يلتفت إلاَّ إلىٰ الله، والصَّالحون والعارفون بالله تجرَّدوا من الكلِّ، وفنوا عن جِنسهم وعن فِلسهم، لأنَّهم لو اعتبروا الفِلْس لما طلبوا الأنْسَ، ولو عشِقوا الجِنْسَ لضاع لهم ذلك الأنْس.

وفي هذا القدر كفاية، وأسأل الله لي ولكم التَّوفيق والهِداية، والحمد لله ربِّ العالَمين.

(1) رواه مُسلم وأحمد وغيرهما، واللَّفظ لمُسلم.

الدَّرس الرَّابع

خواطر إيمانيَّة في آيات قرآنيَّة

(المجلس التَّابعي الثَّالث)

بعد تلاوة عطرة مباركة للآيات الكريمة التَّالية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: 15]، قال الشَّيخ الجليل علي تابعي بن الصَّادق رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ سيِّدنا محمَّد أشرف الأنبياء والمُرسلين، وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم تسليمًا، **أمَّا بَعْدُ**:

في هذه الآية الكريمة يُعَرِّف الله ﷻ حقيقة المؤمنين، وكأنَّ سائلا سأل الحقَّ ﷻ: مَن هم المؤمنون؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: 15]، وتُبيِّن هذه الآية الكريمة أنَّ الارتياب ليس من شأن المؤمنين، لأنَّهم إذا ارتابوا لا يُعَدُّون مؤمنين بالله ولا برسوله، فكلُّ مَن ساوره شكٌّ أو ارتياب في إيمانه فليس بمؤمن صادق، بل إيمانه فاسد، فما علامة صِحَّة الإيمان وصِدْقه؟ وهذا السُّؤال ينبغي أنْ يُلقيه الإنسان علىٰ نفْسِه، ويُطبِّق الآية علىٰ حاله ليرىٰ هل هو مؤمن أم هناك فساد وخللٌ في إيمانه، أو أن إيمانه مريض أو ميِّت؟

ولكي يُبيِّن الله ﷻ علامات صِحَّة الإيمان وصِدقه قال وقوله الحقُّ: ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، وكأنَّ الإيمان يقتضي السَّير في السَّبيل المُوصل إلىٰ الله، ولا إيمان لك إنْ كنت حائدًا عن الطَّريق الذي يُوصلك إلىٰ ربِّك، فإنْ خرجتَ عن هذا المنهج فإنَّك لستَ في سبيل

الله، بل خارج هذا السَّبيل، وهذا ليس زعمًا، وإنَّما يجب أن يكون حقيقة مُعاشة، لأنَّ المرء قد يظنُّ أنَّه سائر في سبيل الله وهو في سبيل الشَّيطان، أو في سبيل نفْسه، أو في سبيل أهله، والسُّبُل مُتعدِّدة مِصداقًا لقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153].

إذن تُبيِّن الآية الكريمة السَّابقة أنَّ من علامات صِدق المؤمن في إيمانه الإنفاق في سبيل الله، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**ما نقصَ مالُ عبدٍ مِن صدقَة**»[1]، أي أنَّ الصَّدقةَ لا تُنْقِصُ المال كما قد نفهمه نحن، ولكنَّ الشَّيطان يُخوِّفنا من الصَّدقة، ويُحذِّرنا مِن الفقر، ولذا قال الله ﷻ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268]. وهناك البعض من جعل الشَّيطان لهم الخوف من الفقر إلها يخافونه ويعبدونه من دون الله، فيترك أحدهم كلَّ الأوامر الإلهيَّة، ويقترفُ المعاصي والآثام في سبيل الوصول إلىٰ المال، ويُسارع في كلِّ ما يوصِله إلىٰ الحصول عليه وجمعه ولو كان ذلك من أبواب الحرام والشُّبهات.

ولكن المؤمن الصَّادق في إيمانه يُسارع إلىٰ طلب معرفة الله والوصول إلىٰ مغفرته ومرضاته، وبهذا أمر الله ﷻ المؤمنين جميعًا فقال: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 133، 134].

إنَّ كلَّ مؤمن لم يفزع إلىٰ الله ولم يُقْبِل عليه إقبالا كُلِّيًّا قد خَسِرَ دنياه وآخرته، ومن علامات إقبال العبد علىٰ الله الإنفاق في سبيله، وقد وعد المولىٰ تبارك وتعالىٰ وعدًا حسنا كلَّ مَن أنفق في سبيل الله فقال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: 39]، وذكر الله ﷻ في هذه الآية كلمة

(1) رواه التِّرمذي وأحمد والطَّبراني.

شيء إشارة إلىٰ أنه لا يضيع أجر أو ثواب كلَّ من أنفق في سبيل الله، ويُخلفه له ولو كان شيئًا قليلاً، لأنَّه خير الرَّازقين الذين تعتقدون بأنَّهم هم الذين يتكفَّلون بأرزاقكم.

وفي كثير من الأحيان يعتقد الإنسان أنَّ نفسَه هي التي ترزقه، وهذا يُعَدُّ خَلَلاً في العقيدة، لأنَّ كلَّ ما يصلُ إليك ليس بالضَّرورة هو لك، وهذا الإعجاز الإلهي الذي يتجلَّىٰ في البشر، حيث يُعجِزك فيما تظنُّه أنَّه لك، وهو ليس لك، فأنت قد تجمع مالا وتضعه في البيت أو تودِعه في البنك، وتعتقد بأنَّ هذا المال هو مالك تتصرَّف فيه كما تشاء، ولكن الحقَّ ﷻ يبتليك بمِحْنَةٍ أو بليَّة، وأنت غير راض بها، وغير صابر عنها، فتُخْرِج في سبيلها ما جمعتَه من مال، ويأخذه الله ﷻ من يدك قهرًا عنك ودموعك تسيل، وضميرك يتقطَّع، ولا أجر لك عند مولاك، لأنَّك قد قطعْتَ الصِّلة بربِّك وذلك باعتمادك علىٰ مالك دون الله، واعتقادك بأنَّك أوتيتَ هذا المال علىٰ عِلْم عندك، واتِّصافك برذيلة البُخل التي هي من علامات أهل النَّار.

وكلُّ مَن اتَّصف بالبُخل وحُبِّ الدُّنيا، والحِرص عليها وطول الأمل فيها، فقد اتَّصف بصِفة مذمومة من صِفات أهل النَّار، وكلُّ وصف في الإنسان مذمومٌ فتلك هي نفسُه، ولذا علىٰ العبد أخذ الحذر من الاتِّصاف بالرَّذائل، وعليه أنْ يسعىٰ للتَّحلِّي بالفضائل، وعليه بالرُّكون إلىٰ الصَّالحات، وعدم الرُّكون إلىٰ المفاسد، لأنَّ هناك قاعدة شرعية مفادها أنَّ: «دَرْء المفْسدةِ مُقَدَّمٌ علىٰ جَلْبِ المصْلَحَة»، وأين يكون تطبيق هذه القاعدة الشَّرعيَّة؟ إنَّ مجال التَّطبيق يكون فيك أنت بالدَّرجة الأولىٰ، وليس علىٰ الآخرين فقط، أي أنَّ درء المفسدة عن نفْسِك أولىٰ لك من جَلْبِ المصلحة لها.

والمقصود بِدَرْءِ المفسدة عن النَّفس وجلب المصلحة لها هو الإقلاع عن المفسدة، ثمَّ السَّعي إلىٰ جلب المصلحة، أي التخلِّي عن الرَّذيلة والتَّحلِّي بالفضيلة، ولا ينبغي لك أنْ تجلبَ المصلحة لنفْسِك لتُبقي المفسدة فيها، ولا اعتبار لمصلحة تُبقي لك مفسدة، وعلىٰ المرء أنْ يأخذ حذره حتَّىٰ لا يقع في

المفاسد بنيَّة جلب المصالح، وهذا ما هو واقع للكثير، فهو يُفكِّر في المصلحة، ولا يُفكِّر في المفسدة التي تترتَّب عليها.

وهذه المصلحة التي يُفكِّر فيها، ويعتقد أنَّها مصلحة قد تكون مفسدة، لأنَّ كلَّ مصلحة لا تُصْلِحُ سريرتَك مع ربِّك فهي مفسدة، فلو بنيتَ مثلاً بيتًا فحَجَبَتْك وأبعدتْك عن ربِّك، فهي تُعَدُّ بالنِّسبة إليك مفسدة، لأنَّ الأرض لمولاك، وكلُّ ما استعملتَه لبناء هذا البيت من حجارة وحديد ورمل وغير ذلك لله، فكيف تُحْجَبُ عنه بما هو له؟! أليس هذا من الوقاحة بمكان؟! أليس هذا من قِلَّة الحياء؟! أليس هذا جحودًا لله وإنكارا لما خَلَقَهُ الله لك؟ بلىٰ.

إذن علينا أنْ نتعلَّمَ الإنفاق في سبيل الله، والذي لا يُنفق من القليل لا يُنفق من الكثير، ويجب أن يكون اقتداؤنا في الإنفاق والكرم برسول الله ﷺ الذي كان لا يرُدُّ سائلاً، ولا يدَّخِر في بيته مالاً، وكان جوَّادًا كريمًا، فعن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «كان رسولُ الله ﷺ أجْوَدَ النَّاس، وكان أجودَ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كلِّ ليلة من رمضان فيُدارِسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الرِّيح المُرْسَلة»[1].

إنَّ الإنفاقَ في سبيل الله خُلُقٌ كريمٌ ينبغي أنْ يتَّصِف به المؤمن، ونحن والحمد لله في منهج طريقتنا يسَّر لنا المولىٰ تبارك وتعالىٰ بناء الزَّوايا في مختلف ربوع وطننا الحبيب، ولنا مشاريع عظيمة وجليلة في هذا المجال، وهذه المشاريع هي في خدمة المُسلمين قاطبة، وليستْ لأهل الطَّريق علىٰ وجه الخصوص، لأنَّ الطَّريق تعمل لفائدة جميع المُسلمين، وينبغي لأهل الطَّريق رفع راية الإنفاق علىٰ مصالحها وعلىٰ مشاريعها في سبيل الله، ويجب علىٰ المُريدين الجِدُّ في خدمة هذا المنهج الربَّانيِّ الكريم، ولا ينبغي لهم الرُّكون إلىٰ الكسل الذي نهايته الفشل.

لأنَّ من أخلاق المُريد العزمَ والجِدَّ في طلب الوصول إلىٰ معرفة الله، والمُريد مَن يُريدُ الله، ولا يُريد سواه، وكلُّ مَن يريد سوىٰ الله فليس بُمريد في

(1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، واللَّفظ للبخاري.

هذه الطَّريق، ولن يجني منها شيئًا، لأنَّه لا غاية له، والمؤمن له غاية مِن وجوده، وهي معرفة الله ﷻ الذي يمدُّه بالحياة، ويمدُّه بالبقاء، وعلىٰ المُريد أنْ يُحِبَّ ربَّه، ويُجاهِد نفْسَه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والعمل بما يُرضيه حتىٰ يلقاه بعد الموت فيستقبله استقبال الذين رضي عنهم ورضُوا عنه في جنَّات عدن، قال الله ﷻ: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: 7، 8].

وينبغي علينا أن نكون عبادًا ربَّانيِّين لله في أقوالنا وأفعالنا، وفي حركاتنا وسكناتنا، وفي أحوالنا ومعاملاتنا، فنحن أهل الله، ونعمل بشريعة الله، ونتوقَّف عند حدود الله، ونُعامِل النَّاس بما يُرضي مولانا، وهذا هو هدف الطَّريق منَّا جميعًا.

وفي هذا القدر كفاية، وأسأل الله لي ولكم التَّوفيق والهِداية، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالَمين.

الدَّرس الخامس

خواطر إيمانيَّة في آيات قرآنيَّة

(المجلس التَّابعي الرَّابع)

بعد تلاوة قرآنية كريمة من أحد المُقْرئين للآيات التَّالية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [سورة القدر]، قال العارف بالله الشَّيخ عليّ تابعيّ بن الصَّادق رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، وصلَّىٰ الله علىٰ سيِّدنا محمّد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، **أمَّا بَعْدُ:**

كنَّا نستمِع قبل قليل إلىٰ سورة القَدْرِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، وممَّا نلاحظه في هذه الآية بالذَّات أنَّها تُشِير إلىٰ عظمة القرآن ودعوة المؤمنين ليشتغلوا به ويتعلَّموه، ويفقهوه ويتدارسونه فيما بينهم للعمل به، لأنَّه دستورهم في الحياة، ولا سعادة لهم في الدُّنيا والآخرة إلا بهذا الدُّستور وهذا المنهج القرآني، وكفىٰ بهذا المنهج شرفًا وتعظيمًا وإجلالاً وتكريمًا لهذه الأمَّة أنَّه منهج اختاره الله لهم، ولا يُمكن لأيِّ مؤمِن عاقل أنْ يجعل اختياره بديلا عن اختيار الله له.

إنَّ سورة القدْر تُنَوِّه بليلة عظيمة، واللَّيلة هي بُرهة من الزَّمن يُشعِرنا الحقُّ ﷻ فيها بالمحافظة علىٰ الوقت والاعتناء به، والاهتمام بشأنه واستثماره فيما يُفيد وينفع، وعلىٰ الإنسان أنْ يضبط نفسه مع الوقت، وأنْ لا يترك لحظة من لحظات الوقت مُهملة هو فيها تائه لا يعرف فيها الصَّلاح من الفساد، ولا الحقَّ من الباطل، ولا الجِدَّ من الهزل، وهذا الشَّأن ليس من طبيعة المؤمن، ولذلك كلِّه

أشار الله ﷻ إلىٰ تعظيم الوقت الذي أنزل فيه القرآن، ومادام القرآن هو دستور الأمَّة ودليلهم إلىٰ ربِّهم ومنهجهم إلىٰ سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، فقد عظَّم الحقُّ جلَّ جلاله الوقت الذي أنزل فيه الوحي علىٰ الرَّسول ﷺ.

ومن هنا ينبغي أن يكون المؤمن شخصًا منضبطًا حريصًا علىٰ وقته، مُراقبًا لأوقاته كلِّها، ولا ينبغي أنْ يضيع وقته سبهللاً[1]، بل عليه أنْ يكون حازمًا وعازمًا في أوقاته، لأنَّ شريعتنا تدعونا إلىٰ الانضباط، وهذا لا يتمُّ إلاَّ بأوقات معلومة مُقَسَّمة علىٰ مدار اللَّيل والنَّهار، ولأهمية الوقت أقْسَم الله ﷻ به فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: 1، 2]، والسُّؤال المطروح: متىٰ يكون الإنسان في خُسْرٍ؟

و**الإجابة**: أنَّ الإنسان يكون في خُسران مُبين عندما يُهْمِل وقته، ولا يضبط أوقات حياته وعمره، لأنَّ الزَّمنَ نعْمةٌ من نِعَم الله العظيمة علىٰ الإنسان، بدليل أنَّ كلَّ الحاجات لا تُقْضَىٰ إلاَّ في الوقت سواء منها الدُّنيوية أو الأخروية، وللوقت شأن عظيم عند الله ﷻ، ولذا قال رسول الله ﷺ: فيما يرويه عن ربِّه: «**يُؤْذيني ابنُ آدم يَسُبَّ الدَّهْرَ، وأنا الدَّهْر بيدي الأمر أُقَلِّبُ اللَّيل والنَّهار**»[2].

وفي الحديث القدسي السَّابق إشارة عظيمة للوقت، ولماذا كان الدَّهرُ هو الله؟ لأنَّ الوقتَ وقتُ الله، فمن عظَّم الوقتَ فقد عظَّم جلال الله، ومن احترم الوقتَ فقد قدَّر الله حقَّ قدره في الوقت، ودليلنا في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فالمطلوب من المؤمن إذن أنْ تكون أوقاته دقيقة من حيث الانضباط والعزم والإرادة، فلا يُهْمِلُ منها ولو طرفة عين، لأنَّ كلَّ لحظة تضيع من الإنسان فهي تضيع من حياته وعمره، وهذا داخل في تربية سلوك الإنسان، ولا يمكن لأحد أنْ يُصْلِحَ سلوكه ما لم يحترم الوقت.

---

(1) سبهللاً تعني «غير مكترث بذهابه». (جامع الكتاب).

(2) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، واللَّفظ للبخاري.

ولقد أشار الحقُّ تبارك وتعالىٰ إلىٰ عظمة الوقت حين قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، أي أنزلناه في وقت عَظُم شأنه وشَرُف وقته، لأنَّه وقت نزل فيه القرآن، وما يشتمل عليه من أوامر ونواه، وزواجر ومواعظ، وإرشادات وأحكام، وقصص وعِبَر لها قدْر عظيم، وعظمة الوقت بعظمة القرآن الذي فيه عجائب الدُّنيا والآخرة، ويتبيَّن لنا من سورة العصر أنَّ الوقتَ يُقدَّرُ ويُحترم بالإيمان والعمل الصالح والتَّواصي بالحقِّ والصَّبْر عليه، فلا ينبغي أن نستغِلَّ الوقت في غير هذه الأمور الأربعة.

وإذن يجب أن يكون وقتك لله، ولا بدَّ من الانطلاق من هذا، وأن تكون شاعرًا أنَّ الوقت هو الدَّهر، والدَّهر هو الله أي مخلوق لله، ولم يَخْلُقْ الحقُّ ﷻ الوقت سُدىٰ بدليل قوله ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115]، وأنت مُطالَبٌ أن يكون وقتك منطلق من أمرين:

أولهما: من إيمانك أنَّ الوقتَ مخلوقٌ لله،

وثانيهما: أنَّ وقتك يجب أن يكون لله، لأنَّك أنت مخلوقٌ لله، وقد أكرمك الحقُّ ﷻ بالوقت وخَلَقَهُ لأجلك لتؤدِّي فيه مآربك، وتقضي فيه مصالحك، وتأتي فيه بالفرائض والواجبات وجميع التَّكاليف الإلهية، سواء كانت تكاليف سلوكيَّة أو تعبُّديَّة أو تعامُليَّة، أو علىٰ أي وجه من الوجوه، لأنَّ وقت الإنسان لا يمكن أن يخرج من كونه مُعاملة أو مُعاشرة، أو عبادة، فإمَّا أنْ تتعاملَ مع ربِّك، وإمَّا أنْ تتعامل مع نبيِّك ﷺ، وإمَّا أنْ تتعامل مع الغير.

ولكنَّ الأمر الذي يُؤدِّي بك إلىٰ إهمال الوقت هو عدم الشُّعور الإيمانيِّ الذي ينبغي أنْ ينبعثَ بمجرَّد بروز النَّفَسِ منك، لأنَّ ذلك النَّفَسَ الذي تَتَنَفَّسَهُ هو وقتٌ، وقد قال العالم الصالح ابن عطاء الله رحمه الله: «ما مِن نفَسٍ تُبْدِيه إلاَّ وله قَدَرٌ فيك يُمْضِيهِ»، فكلُّ نَفَسٍ تُبديه داخلٌ في الوقت، ويجب أن يخرج منك وأنت مُسْتَشْعِرٌ بأنَّك مؤمِن، وإيمانك يوجِبُ عليك أنْ يكون نفَسُك هذا الذي برز منك لله شكرًا له علىٰ نِعْمته، وأنْ تُعَمِّرَ أنفاسك بالعمل الصَّالح والتَّواصي بالحقِّ

والتَّواصي بالصَّبر، وأن تكون ذا عَزْمٍ وحَزْمٍ بإلزام نفْسِك الوقوف مع الحقِّ، ولا شيء سواه.

فإذا أرَادَتْ نفْسُك أن تُلهيك أو تُبعدك عن الحقِّ وتُشغلك بما سواه، فعليك أنْ تحثَّها علىٰ الصبَّر علىٰ الحقِّ، وتُلزمها به خوفًا من أنْ تخرج من الحقِّ فيضيع وقتك وتخسره، ولا يمكنك إدراكه واللُّحوق به، لأنَّ كُلَّ نفَس بدا منك وخرج في غير الإيمان والعمل الصَّالح وفي غير الحقِّ لن تُدْرِكَه أبدا ولو أنفقْتَ ما في الأرض جميعا، فلا بالأهل تُعيده، ولا بالمال تُرجعه.

وأنا أقول لكم هذا الكلام لتزدادوا حِرصًا علىٰ الوقت، لأنَّنا لسنا أصحاب إهمال، بل أصحاب عَزْمٍ وإرادة، وهكذا هي سيرة المصطفىٰ ﷺ وسيرة صحابته رضي الله عنهم، وطبعًا نحن علىٰ آثارهم مُقْتدون ومُهْتدون، وكما قال أحد العارفين:

وتَشَبَّهوا إن لم تكونوا مثلهم إنَّ التَّشبُّهَ بالكرام فلاح

وينبغي أن نهتدي بسيرة النَّبيِّ ﷺ وسيرة صحابته الكرام، ونُطبِّقها في حياتنا ولا نكتفي بحِفظها والكلام عليها، لأنَّ القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبوية الشَّريفة إنَّما هما للتَّطبيق والمُعايشة والتَّفاعل معهما، ويُروىٰ أنَّ رجلا كان راكبًا علىٰ جمله، فسمع قارئًا يقرأ القرآن، فسقط مِن علىٰ جمله، لماذا؟ لأنَّه تفاعل مع ما سمع فنسي الجمل ونسي نفْسَه، وتاه في حُبِّ الله وانشغل بربِّه، ولكنَّنا نحن نبحث متىٰ نجد فرصة للتِّيه والابتعاد عن المُقَوِّمات الرُّوحيَّة، وهي الفرائض والمُهِمَّات التي أوجبها الله علينا.

وإنِّي أصارحكم القول فإنِّي لا أريد أن تكونوا أناسًا مُهْمِلين تائهين ضائعين ومُضَيِّعين لأوقاتهم، بل يجب علىٰ كلِّ واحد منكم أنْ يحرصَ علىٰ الوقت، ويستغلَّه بحِكمة في العمل الصَّالح، ويدخل فيه من منطلق الإيمان، ويخرج منه كذلك مُسْتَشْعِرًا بالربِّ الذي رحمه وأكرمه بوقت سمَّاه عمره، وأهداه له، وألزمه باحترامه، وهذا أمر يَسِيرٌ وسَهْلٌ، ولكنَّ النَّفْسَ الأمَّارةَ بالسُّوء تتعلَّلُ بقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286].

وقلنا أنَّ هذا الاحتجاج باطل، والنَّفْس إنَّما تريد أن تُدخِلَ عليك العجْزَ، وتُوهِمَك بأنّك عاجز ولا قُدْرة لك، فكنْ أنت واثقًا بالقُدُرات التي خَلَقَها الله فيك، وما يُسَمِّيه البعض الثِّقة بالنَّفْس نُسَمِّيه نحن: الوثوق بالقُدُرات المخلوقة من الله فينا، والكثير من النَّاس لهم قُدرات هائلة يستطيعون بها فعل العجائب والغرائب في الحياة الدُّنيويَّة والحياة الرُّوحيَّة الأخرويَّة، ولكنَّك تجد بعضهم يعيش في الوهْم، ويتعلَّلُ بالأعذار الواهية، وذلك راجع إلىٰ وجود الهوىٰ في نفْسه الذي يُوهمه بأنَّه عاجز ولا يستطيع فعل شيء، فإذا قلتَ له: لماذا لا تتحرَّك؟ قال محْتجًّا بالآية الكريمة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وهو يظنُّ أنَّه هو المُكَلِّف، وعلىٰ أنَّه لا يقدر علىٰ أمر ولا يستطيع شيئًا.

وهذه مُعاندة للرُّبوبيَّة، وقوله تعالىٰ في الآية السَّابقة خاصٌّ بالله، ولا ينبغي أن يستشهدَ بها أحد لصالح نفْسِه أبدًا، فالله كلَّف خَلْقَه بتكاليف، ومادام هو المكلِّفُ فهو عليم ومُطَلِّع علىٰ مَن كلَّفه وبما كلَّفه، فأنت قادر علىٰ تأدية تكاليف ربِّك، وكلُّ ما كلَّفك به تَسَعُهُ قدرتُك، فلا تجعل الآية حُجَّةً تستشهدُ بها لنَفْسك، وتعتمدُ عليها في كسلك وعدم رغبتك في العمل.

ونحن أناس أخلصْنا أنفسنا لله، وطلبنا منه صادقين أنْ يجعل كلَّ حياتنا له، وعلينا أنْ نبذلَ قُصارىٰ جهودنا في تحقيق ذلك، ونستعملَ يد الله التي مُدَّت إلينا بالأسباب، والله لا يستجيبُ لنا حتىٰ ننتهي من تعاطي الأسباب، ففي بعض الأحيان يدعو الإنسان ولا يُستجاب له، لأنَّه يدعوه علىٰ تَرَفُّع وغفلة من غير اضطرار إليه، والحقُّ ﷻ إنَّما وعد المُضْطَرِّين بالإجابة فقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ **[النمل: 62].**

ولو أنَّك اضطررتَ إليه حقًا لأجابك، أمَّا إذا لم يُجِبْك فلأنَّك تدعوه علىٰ تَرَفٍ وغِنًىٰ، وقد أمدَّك بأسباب لم تستنفذها، فأصبحتَ بذلك رافضًا لليد التي أمدَّها ربُّك إليك، ولذلك لا يستجيب لك حتىٰ تستنفذَ أسبابه، وعندما تستنفذها

ويظهر عجزك الحقيقي غير المُتَوَهَّم وغير المُتَصَوَّر في ذهنك، فإنَّ عناية الله تُدركك في الحين، وفي أقلِّ مِن طَرْفة عَيْنٍ.

وإذن لو أنَّ كلَّ واحد منَّا نفىٰ الوَهْمَ عن نفْسِه، واستعملَ قدراته التي أمدَّه الله بها في الحياة، لكانت حياتُنا جنَّةً بزخارفها، يتمتَّع فيها النَّاس في أرغد عيش وأهنأ بال، ولكنَّ البعض منا انحرفوا وتاهوا عن الشُّعور الإيمانيِّ، وابتعدوا عن المنطلقات الإيمانيَّة في الأنْفاس والحركات، وفي العبادات والمُعاملات، ولكي يردَّنا الله ﷻ إلىٰ ساحة رحابه جاءت الشَّريعة وجعلتْ لنا أدعية وأذكارًا مُرتبطة بكلِّ حركة من حركاتنا.

ولكنَّنا مع الأسف جعلنا تلك الأدعية تتحرَّك بها الشِّفاه، ولا تعايشها القلوب، ولذلك لا تحصل منها الفوائد، ولا نجني منها الثِّمار، وإذا لم نبالغ نقول: عندما تُتَمْتِمُ بتلك الأذكار والأدعية باللِّسان، وأنت غير شاعر بما تدعو به وتذْكُره، فلربَّما تلعنك من حيث لا تشعر أنت، وتقول لك: أتذْكُر ربَّك وأنت لا تشعر به؟ أتذكره ولا تُعَظِّمه؟ أتذكره ولا ترحل من نفْسك إليه؟

ولقد كان الصَّحابة ﷺ يُعايشون الحقَّ ﷻ في كلِّ حركاتهم وسكناتهم، وفي كلِّ أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، ونحن علىٰ سبيلهم وطريقتهم ومنهجهم سائرون، نهتدي بهداهم، ولذلك كلَّما ذكرناهم أو تحدَّث مُتَحَدِّثٌ عنهم أمامنا تعجَّبْنا من حياتهم، وأحْسَسْنا بنُور يهزُّنا ويُشوِّقنا إليهم وإلىٰ خِصالهم الحميدة وشمائلهم الكريمة، وذلك لإخلاصهم مع الحقِّ ﷻ، ولشدَّة صِدْقهم مع ربِّهم، الذي أنار سرائرهم وعلانيتهم، وجعل الحديث عنهم ولو بعد أمدٍ بعيد تهتزُّ له القلوب، وتذرف له الدُّموع، ويحسُّ المرء أنَّ بينه وبينهم فرْقًا شاسعًا، وهؤلاء هم الرِّجال العظماء الذين يجب علينا أنْ نقتدي بهم ونتأسَّىٰ بهم، ونسعىٰ إلىٰ اتِّخاذهم نموذجا لنا لتحقيق العبودية لله في أنفسنا، ونحاول أن يكون لنا نصيب من مراتبهم المرموقة.

ولكنَّنا نحن تُوهِمُنا نفوسنا بأنَّنا غيرُ أهل لذلك، وتدعونا للرُّكون للكسل والرَّاحة بدعوىٰ العجْز، وهذا ليس من طبيعة المؤمن المُجِدِّ في طلب معرفة ربِّه،

فلا تجعلْ لنفسك عليك سبيلاً، وافْزَعْ إلىٰ مولاك، وارْحَلْ إلىٰ ربِّك مُشتاقًا إليه، وكنْ صاحبَ عَزْمٍ وإرادة، وعليك أن تستنفذَ قدراتك في طاعة الله، وفي كلِّ ما يُرَغِّبك فيه، وابذلْ قُصارىٰ جهدك في تزكية نفسك وتربيتها وإخلاصها لله وتجريدها ممَّا سواه.

إنَّ الإسلامَ منهجُ نِظام مواقيتُه محسوبة، ولذا جعل الحقُّ ﷻ لكلِّ عبادة من العبادات كالصَّلاة والزَّكاة والصَّوم والحَجِّ ميقاتًا، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الله تبارك وتعالىٰ يريد أن يُعلِّمنا النِّظام، لأنَّ الكون كلَّه مبنيٌّ علىٰ نظام دقيق، وقد جعل الله ﷻ الإنسان سلطانا في هذا الكون ليكونَ خليفته في الأرض ويُعَمِّرها مِصداقًا لقوله ﷻ : «﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]، وعلىٰ الإنسان أنْ يعيشَ في أرض ربِّه بانضباط ونظام، وعليه إنفاذ كلِّ قُوَّتِه في الصَّالح العامِّ، وهذا الذي يلزمنا معايشته لكي لا نجعل حياتنا هملاً لا احترام فيها للأوقات.

والواجب علينا أنْ نُداومَ علىٰ طاعة الله تبارك وتعالىٰ في كلِّ أوقاتنا، وإذا كنَّا قد جئنا في هذه اللَّيلة لنحتفل بليلة القدْر، وعندما تنقضي هذه اللَّيلة المباركة تنتهي عزائمُنا وتخُورُ إرادتنا، ونعود حيث كنَّا قبل شهر رمضان، فنحن لم نستفدْ لا من رمضان ولا من ليلة القدر، لأنَّ شهرَ رمضان وليلة القدر جاءا لبَعْثِ الحياة فينا والنُّهوض بنا، وشحْذِ عزائمنا وتصفية قلوبنا، ودفعنا لما بعد رمضان وما بعد ليلة القدْر، حتَّىٰ تصير أيامُنا كلُّها كليلة القدْر، وما أدراك ما ليلة القدْر.

وما هي ليلة القدر؟ هي ليلة كسائر اللَّيالي، وإنما الشَّرف الذي حُظِيَتْ به، والتَّعظيم والتَّقدير الذي نالتْه، هو بسبب نزول القرآن الكريم فيها، فإذا كنتَ تتلو القرآن وتتدارسه، وتُعايش القرآن وتطبِّقه، فإنَّ لك عند الله مكانة عظيمة وجليلة، ومِن كرم الله ﷻ أن جعل لنا مواقيت وأزمنة ليُنبِّهنا وينهض بنا، وليشحذ هِمَمَنا حتَّىٰ نعود إليه، ولكي نفزع إليه، فيملأ نفوسنا رُشدًا وصلاحًا، ويفيض علىٰ قلوبنا إيمانا ويقينًا، وهداية ورشدًا، وتوفيقًا ورحمة، وبذلك يتحقَّق السُّلوك في الحياة، وتصبح الحياة في معناها الصَّحيح بأتمِّ معنىٰ الكلمة، وهذا ما يدلُّنا عليه القرآن

الكريم في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162، 163].

ومن هذا المنطلق يجب أنْ يكون محياك لله، فلا تحيا لنفسك بل لربِّك، وهل أنت الذي خلقتَ نفسك؟ وهل أعطيتَ لنَفْسِك الحياة حتَّىٰ تحيا لها؟ لا، إنَّما الله هو الذي خَلَقَ لك نفْسَك وأمدَّها بالحياة، فعليك أنْ تحيا لمن أعطاك الحياة ووهبها لك، ولا تحيا بنفسك لحياة ليستْ لك، وحياتك لنفسك إنَّما هي ناشئة من عدم الشُّعور بعظمة ربِّك، ومن عدم انطلاقك من منبع الإيمان، ومن عدم قوة هذا الإيمان، فلو قَوِيَ إيمانك لما فهمتَ هذا الفهم.

لأنَّ كل حركة في الحياة علىٰ إطلاقها لا تكون منبعثةً من الإيمان فهي فاسدة ولو كانتْ حركة مُباحة كالأكل والطَّعام والشَّراب مثلاً، ولذا عليك أنْ تنطلق من منطلق الإيمان في تناول طعامك وشرابك، وتشاهد بقلبك أنَّ المُطْعِمَ هو الله، والرزَّاق هو الله، وتعايش ربَّك في الطَّعام، وتكون له عبْدًا في أكلك كما كان الرَّسولُ ﷺ الذي قال عن نفْسِه: «**آكلُ كمَا يأكلُ العبدُ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ، فإنَّما أنا عبدٌ**»[1].

فالرَّسول ﷺ كان لا يُعايِش الطَّعام بشهوته، إنَّما يُعايشُ ربَّه، فشعوره بإنعام الله أنساه شهوته، وهذا مثال فقط، فلا بد من المعايشة الإيمانية في كلِّ الحركات الكونية، ولكي تعايش ربَّك لا بدَّ لك من تغيِّير ما بنفْسِك من الشُّرور ومن الرَّذائل، وتسعىٰ إلىٰ تطهير قلبك من كلِّ ما سوىٰ الله جادًّا وعازمًا، وتكون صاحب إرادة قوية لا تلين، ولا تعود إلىٰ الوراء أبدًا، وإنْ رأىٰ الله منك هذا القصد الصَّحيح والعزْم الصَّريح فإنَّه سيُعينك علىٰ تغيِّير ما بنفْسك، لأنَّه القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

والله تبارك وتعالىٰ يقول لنا في مفهوم هذه الآية: إنِّي أمددتُكم بالأسباب فاستعملوها في تغيِّير ما بأنفسكم من الشُّرور والقبائح والرَّذائل، فإنْ عجزتم

(1) رواه البيهقي في شُعَبِ الإيمان.

فستجدونني أمامكم لآخذ بأيديكم، أمَّا ما دمتم عاجزين مكتوفي الأيدي، وحياتكم لا نظام فيها ولا انتظام، فأنا لا أرضىٰ لكم هذا الوضع، ولا أرضاه لمسلم أبدًا.

ومن جهة أخرىٰ أنا أقول لكم هذا من باب النَّصيحة لله خالصة قبلتموها أم رددتموها، وإنِّي لا أريد منكم جزاء ولا شكورًا، ولا مَدْحًا ولا تعظيمًا، وإنِّي أردتُ أن أنصح نفسي من خلالكم لأربح رِبْحَيْن، وأضربُ بحجر واحد عصفورين، ونصيحتي هذه إنَّما هي نصيحة الله إليكم أجراها الحقُّ ﷻ علىٰ لساني، فإذا قبلتموها فقد قبلتموها من الله، وإن ردَّدتموها فقد ردَّدتموها عليه.

وإنِّي لآمل أنْ تكونوا رجالا وأبطالا في الحياة، كما كان الصَّحابة الكِرام رضي الله عنهم الذين كانوا رُهبانا باللَّيل وفُرسانا بالنَّهار، وكانوا في اللَّيل عُبَّادًا وفي النَّهار أسودًا، وقد أعطوا لكلِّ حركة من حركاتهم في الحياة حقَّها إخلاصًا وصِدقًا، وعزمًا وإرادة، وكان لهم صِدْقٌ في العمل وإخلاص فيه، وشعور بأنَّ ذلك العمل أَمرَ به الله، وما يعملونه هو عمل سخَّره الله لهم ويسَّرهم إليه.

كما أنِّي لا أريد منكم أنْ تجعلوا من أنْفُسِكُم تافهين في هذه الحياة، لأنَّ الإنسان لا قيمة له إذا لم يكن من الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات، والذين يتواصون بالحقِّ وبالصَّبر عليه، مِصداقًا لقوله ﷻ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [سورة العصر]، والإنسان في خُسران مُبين إذا لم يكن مربوطًا بالإيمان تصديقًا وشعورًا، والإيمانُ ذَوْقٌ وسلوكٌ، والإيمانُ نظامٌ وترتيبٌ، وليس فيه شيء مُهملاً، فإنْ لم يكن النِّظامُ سائدًا في حياتك، فإنَّك لم تفهمْ حقيقة الإيمان بعد، ولكنَّنا للأسف الشَّديد فإنَّ الإيمان عند البعض منَّا كلمات نُردِّدُها ونحفظُها، ولا نعيشها حقيقة.

وقد ورد في أثر للحسن البصري رحمه الله: «ليس الإيمان بالتَّمنِّي ولا بالتَّحلِّي، ولكن ما وَقَر في القلبِ وصَدَّقَتْه الأعْمَالُ ...»[1]، فالإيمان يسكن القلب ويترعرعُ فيه، فينتبه الإنسان، ويفيض ذلك الإيمان علىٰ جوارحه، وعلىٰ حركاته وسلوكه في

(1) رواه البيهقي في شُعب الإيمان.

الحياة، وهكذا يصبح المجتمع مجتمعًا طاهرًا، وإنَّما الذي يُفسد نظام المجتمع واعتداله وبهجة جماله هو الإنسان الذي جعله الله خليفة، لأنَّه لم يُعْطِ لهذه الخلافة حقَّها، وفَهِمَها فهمًا خاطئًا، فأضاع ما استخلفه الله عليه، والمعلوم أنَّ كُلَّ مَن يُضَيِّع ما استُخْلِفَ عليه يحرمه الله منه في الحياة، ويُعذِّبه عليه في الآخرة، ومن هنا جاءت قضية الثَّواب والعِقاب.

وأودُّ منكم أن تفهموا جيِّدًا أنَّ الانضباط من أهمِّ المُهِمَّات في حياة المسلم، واحترام الوقت أمر بالغ الأهمية لدىٰ المؤمِن، والنِّظام ضروريٌّ في المجتمع الإسلامي، وعلىٰ المؤمِن أنْ لا يتركَ حياته تسير هملاً، وذلك بأنْ يضبط حياته ودقائق عمره، ويحرص عليها حتَّىٰ لا تضيع منها لحظة إلاَّ في طاعة الله، لأنَّ الدُّنيا والآخرة وما فيهما مخلوقات لله، فاحذروا أنْ تحجِبنا الدُّنيا عن الآخرة، أو تحجبنا الآخرة عن الله تعالىٰ، ويستحيلُ في حقِّ الله جلَّ جلاله أنْ يجعلَ الدُّنيا حجابًا بيننا وبينه، وهل يجعل الحقُّ ﷻ الإنعامَ حجابًا؟ لا، ولكن النِّعَم قد تكون حجابًا عن الله في حقِّ ضُعفاء الإيمان.

والإنعام من تمام رفْع الحجاب في حقِّ مَن كان إيمانه قويًّا، وإنَّما الذي حجبنا عن ربِّنا هو أنَّنا نظُنُّ ونتوهَّم أنَّنا نحن المُنْعِمُون ونسينا المُنْعِم الحقيقي فاحتجبنا عنه، ومن الْعَدْلِ عندئذ أن يحجبنا عنه، ويقول لنا: ألم تنسوا نِعَمي التي أنعمْتُ بها عليكم؟ ألم تجعلوها سبيلا ووسيلة للغفلة عنِّي ونسياني؟ فها أنا أُنْسِيكم أنفُسَكم وأوكلكم إليها، والويل لمن أوكله الله إلىٰ نفسه، ولقد كان رسول الله ﷺ يقول في جملة أدعيته: «...**يا حيُّ يا قيُّوم برحمتِك أستغيثُ، أصْلِحْ لي شأني كلَّه، ولا تكِلْنِي إلىٰ نفسي طرْفةَ عَيْن ...**»[1].

وقد أمرنا الحقِّ ﷻ بالعمل الصَّالِح والإخلاص فيه لله، فقال عزَّ من قائل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: 5]، أي أنْ يُخْلِصُوا لله الدِّين مُستقيمين علىٰ شريعته، وعلىٰ الأقلِّ في فهمي الخاصِّ أنَّه لا فرق بين الدُّنيا

(1) رواه النَّسائي في السُّنن الكبرىٰ والحاكم في المستدرك وغيرهما، واللَّفظ للنَّسائي.

والآخرة، فالدُّنيا نموذج من الآخرة، وقد جعل الله ﷻ في الدُّنيا نماذج من الإنعام ليُرَغِّبنا فيها في الآخرة، ولكنَّنا فهمنا العكس، والسَّبب راجع لعدم انطلاقنا من الشُّعور الإيمانيِّ، وانطلاقنا من الهوىٰ الشَّيطانيِّ، وهذا هو السَّبب الذي تركنا نتخبَّط فيما نحن فيه من تردِّي أحوال المُسلمين اليوم، حتَّىٰ أصبح الإسلام نفسه مُتَّهمًا مظلومًا لظُلم أبنائه وأتباعه له.

وهذا ما أردتُ أنْ أبلِّغه لكم حتَّىٰ لا يسألنا الله يوم القيامة علىٰ التَّقصير في نُصحكم وإرشادكم أو التَّفريط في تنبيهكم، فالله يشهد أنَّنا أيقظنا النَّائم منكم، والله يشهد أنَّنا نبَّهنا الغافل منكم وأرشدناكم لله، واجتمعنا معكم لله، ونحن لا نملك لكم نفْعًا ولا ضرًّا، بل نحن عباد مثلكم والله هو الضَّارُ والنَّافعُ، والخافِضُ والرافعُ، ونسأل الله ﷻ في هذه اللَّيلة المُباركة التي اجتمعنا فيها علىٰ تلاوة القرآن الكريم، وعلىٰ ذِكْرِ الله ﷻ، وعلىٰ الصَّلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ مُتَعَرِّضِينَ فيها لنفحات ربِّنا، فلعلَّه ﷻ ينفحنا بنفحة من عنده تكون لنا فيها سعادتنا في الدُّنيا والآخرة، ويُوفِّقنا بها في بقية حياتنا حتَّىٰ نكون عنده من الصَّالحين.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالَمين.

الدَّرس السَّادس[1]

لطائف وإشارات مقْتَبَسَة من آية كريمة في سورة الحجِّ

بعد تلاوة مباركة عطرة من أحد المُقرئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [**الحج: 36، 37**]، قال العارف بالله الشَّيخ علي تابعي بن الصَّادق رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمُرْسَلِين، وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم تسليمًا، **أما بعد:**

إنَّ مجالسنا هذه مجالس ذِكْرٍ ومُذَاكَرة وهِداية وإرشاد، وهي من شعائر الله، والله ﷻ يقول في القرآن الكريم: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [**الحج: 32**]، وهذا يعني أنَّ التَّعظيم ينطلق من القلوب وليس من الألسنة، وأنَّ تعظيم شعائر الله علامة تقوىٰ القلوب، وليس للقلب أعمال يقوم بها، وإنَّما هي مقاصد ونِيَّات يكون هذا القلب مَحَلاً لها، واتِّصافه بالتَّقوىٰ إشارة إلىٰ أنَّه يتَّقي النَّظر إلىٰ ما سوىٰ الله، لأنَّ القلبَ مَحَلُّ التَّصديق، حيث أنَّ الإيمان تصديق بالقلب واعترافٌ باللِّسان.

وهذا التَّصديق يقتضي أن لا يغفل المُصَدِّقُ ولو طرْفة عَيْنٍ علىٰ المُصَدَّقِ به وهو الله ﷻ، وليست الغفلة حجابًا دائمًا، فقد تكون في بعض الأحيان رحمةً من

(1) درس ألقاه الشيخ الجليل والأستاذ المربّي علي تابعي بزاوية ولاية الوادي.

الله للمؤمِن، ولكن بشرط أنْ يكون الشُّعور أثناء الغفلة هو هذا الشُّعور المُشار إليه، وهذا يعني أن يشعرَ العبد أنَّ هذه الغفلة إنَّما جاءت للرَّحمة، وشعور المؤمن بهذه الغفلة يُبعده عن المعاصي ويحميه منها.

وإذن فالتَّقوىٰ هي اتِّقاء الله، أي أن تتَّقي بقلبك ما سوىٰ الله، لأنَّ كلَّ ما يطرًا علىٰ القلب من خاطر أو وارد يُبعِد العبد عن وجهته ولو لحظة، وبقدْر ما تكون هذه التَّقوىٰ يكون التَّعظيم لأوامر الله جلَّ جلاله، وشعائرُ الله هي أوامره ونواهيه، وأوَّل مرتبة من مراتب التَّقوىٰ اتِّقاء الشِّرك الظَّاهر، والمؤمن في براءة من هذا الشِّرْك والحمد لله، ولكنَّ الشِّرْكَ الخَفِيَّ لا يكون أحد مَحْمِيًّا منه حتَّىٰ تتحقَّقَ التَّقوىٰ في قلبه، وقول الله ﷻ في الآية السَّابقة ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ إشارة إلىٰ أنَّ تعظيم شعائر الله هو سبيل إلىٰ تقوىٰ القلوب.

ومن جهة أخرىٰ تشير الآية كذلك إلىٰ أنَّ تعظيم شعائر الله لا يصدرُ إلاَّ من قلب تقيٍّ، وتعظيم الشَّعائر يأتي من الشُّعور بالله، فمن ليس له شعور بالله لا يُعَظِّم هذه الشَّعائر، لأنَّ أوامر الله صارتْ عنده بمثابة العادات، بدليل أنَّها لا تُؤَثِّر في قلبه ولا تظهر علىٰ شعوره وسلوكه ومعاملاته حتَّىٰ أنَّ البعضَ مِنَّا يُفَرِّقُ بين العبادة والمعاملة فيقول: هذه عبادة، ولكنَّ هذه معاملة، وكأنَّ المعاملة ليست عبادة مع أنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**إنَّما الدِّينُ المُعَامَلة**»، فكلُّ معاملة بينك وبين نفْسك، أو بينك وبين أي مخلوق مهما كان، فأنتَ تدين لله بهذه المعاملة، وتتعامل مع غيرك كما أمرك الله ﷻ .

غير أنَّ المسلمين اليوم أخذوا من الدِّين الجانب التَّعبُّدي والمُسَمَّىٰ بالعبادات، وأهملوا جانب المعاملات فأصبحوا لا يلتفتون إليه، ولا يهتمُّون به، وكأنَّ البعض قد فهِم أنَّ المُسْلِمَ بعد أن يؤدِّي الصَّلاة ويُخرج زكاة ماله، ويصوم رمضان، ويحجَّ بيت الله، فهو حُرٌّ يفعل ما يشاء وبالكيفية التي تُملِيها عليه نفْسه ويطيع أوامرها، وهناك قِلَّة من النَّاس يُطَبِّقون شرع الله في المعاملات، ولكنَّ أكثر النَّاس عن هذه المعاملات الشَّرعية غافلون.

لقد جاء الدِّين الإسلامي لهذه الأمَّة ليحميَ الأعراضَ والأنسابَ والدِّماء، وكلُّ هذه الأمور من صميم المعاملات، ومادمنا لم نَصِلْ إلىٰ حُسْن التَّعامل والمعاملة فيما بيننا، ولم نهتمْ بالجانب التَّعامليِّ ففي ديننا نقص، لأنَّ الدِّينَ عبادة ومعاملة، فالعبادة أمور يلتقي فيها العبد مع سيِّده ومولاه يُناجيه فيها ويدعوه، والمعاملة هي الأمور التي بينه وبين مَخْلُوقٍ مِثْله، فيجب علىٰ العبد أن ينظر إلىٰ هذه المعاملة علىٰ أنَّها عبادة، وأنَّها قُرْبَةٌ تُقرِّبه إلىٰ الله، ودينٌ يَدِينُ به لربِّه. والمعاملة دِينٌ إذا أحْسَنَّا تطبيقها، لأنَّ كلَّ ما علىٰ وجه الأرض من إنسان أو حيوان أو شجر أو جماد مخلوقاتٌ لله، والله ﷻ لا يقبل من أيٍّ كان أن يتعامل مع الكائنات معاملة مخالفة لشرعه من أوامر ونواه، ولهذا يجب علينا الاهتمام بالجانب التَّعامليِّ للدِّين، ويجب علينا أن نسعىٰ جاهدين لنتعامل بأحسن الأخلاق مع غيرنا، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إيمانًا أَحْسَنُهم خُلُقًا**»[1].

(1) رواه أحمد وأبو داود والبيهقي.

الدَّرس السَّابع[1]

لطائف مقْتَبَسة مِن الحديث النبويِّ الشريف «من غشّنا فليس منّا»

بعد تلاوة مباركة عطرة من أحد المُقرئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 168، 169]، قال الشَّيخ الجليل عليّ تابعيّ بن الصَّادق رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمُرْسَلين وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم تسليمًا، **أمَّا بَعْدُ**:

رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ مرَّ في السَّوق علىٰ كَوْمَةٍ من طعام فأدخل يده فيه، فنالتْ أصابعه بللا فقال: «**ما هذا يا صاحب الطَّعام؟ فقال: أصابتْهُ السَّماءُ يا رسول الله، قال: أفلا جعلتَه فوق الطَّعام حتَّىٰ يراه النَّاسُ، ثُمَّ قال: مَن غشَّنَا فليس مِنَّا**»[2]، فما هو الغِشُّ في البيع؟ وما هي صور الغِشِّ في بعض المعاملات؟ وما هي عواقِب الغِشِّ؟

الغِشُّ في البيع هو أنْ تبيعَ الرَّديءَ من السِّلَعِ بثمن الجيِّد منها، والغِشُّ يشمل كلَّ ميادين الحياة، وقد يكون الغِشُّ في الكلام، فقولك بلسانك ما ليس في قلبك نفاق وغِشٌّ، وأغلبُ النَّاس اليوم شُركاء في الغشِّ، لأنَّهم يرون مَن يغُشُّ ولكنَّهم عن هذا الغشِّ ساكتون، وهذا يعني رِضًا منهم بالغِشِّ، وكأنَّ الغِشَّ أصبح أمرًا مشروعًا وطبيعيًّا في المجتمع لا يُغيِّره أحد ولا يتغيَّر منه أيُّ فرد، وعدم إسداء

(1) درس ألقاه قدْوة السَّالكين ومربِّي المريدين الشيخ عليّ تابعي بزاوية عنّابة في موضوع «الغِشُّ: أنواعه وعواقِبه»، علىٰ ضوء الحديث النبوي الشريف «**مَن غَشَّنا فليسَ مِنَّا**». (جامع الكتاب)

(2) رواه ابن حِبَّان والبيهقي والحاكم وغيرهم، واللَّفظ لابن حِبَّان.

النَّصيحة لمن يغشُّ يُعَدُّ غِشًّا في ذاته، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّما الدِّينُ النَّصيحة، قالوا: لمَن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابِه ولرسولِه ولأئمَّة المُسلمين وعامَّتهم**»[1]، فمَن رأىٰ أحدًا علىٰ ضلالة أو مهلكة ولم يُلْقِ له بالا فقد غشَّه، ومن كتم شهادة لله ولم يُقمها فقد غشَّ نفْسَه وغشَّ غيره، وهذا نوع من الغشِّ سمَّاه الشَّرع شهادة الزُّور وحذَّر منه النَّبيُّ ﷺ تحذيرًا شديدًا فقال: «**ألا أنبّئكُم بأكبرِ الكبائر ثلاثًا؟ قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: الإشْراكُ بالله وعقوقُ الوالديْن وجلسَ وكان مُتَّكئا فقال: ألا وقول الزُّور، قال: فما زال يكرِّرها حتَّىٰ قلنا ليته سكت**»[2]، وشهادة الزُّور غِشٌّ عظيم وبهتان مُبين، وظُلْم كبير وتَعَدٍّ علىٰ الغير، وأخْذ لحقوقهم بالباطل وإعطاء هذه الحقوق لمَن لا يستحقّها، وهذا من أكبر الغشِّ وأعظمه.

وبعد أن عرفنا الغشَّ وبعض صُوَره فما هو ضرره؟ إنَّ ضررَ الغشِّ عظيم، وأوَّل من يتضرَّرُ بهذا الغشِّ هو الغاشُّ نفْسُه، فإذا غشَشْتَ النَّاسَ فقد أخذتَ حقوقهم بدون حقٍّ، وهذا يعني أنَّك تأخذ إلىٰ بيتك مالا حرامًا، وتأكلُ الحرام، وتلبس لباسًا حرامًا، وتتغذَّىٰ بالحرام، وتُشَيِّدُ بيتًا من مال حرام، وسَتُطعم مَن تعول مالا فيه شُبهة، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**كلُّ لحْمٍ ودَم نبتَا من سُحْتٍ فالنَّار أولىٰ بهما**»[3]، وأنت عندما تعامل النَّاس بالغشِّ لن تربح الدُّنيا وستخسر الآخرة، لأنَّ الحرام ستنشأ عنه عِلَلاً ومصائب في بدنك، وسيكون خصمك يوم القيامة كلَّ من تغذَّىٰ بمالك الحرام، وأنت تظنُّ أنَّك قضيتَ مصالحك بالغِشِّ، ولكنَّك في حقيقة الأمر قد جلبتَ لنفْسِك الهلاك والدَّمار.

وهناك صُوَرٌ كثيرة من الغشِّ قد لا نلقي لها بالاً، فالذي يعمل في شركة أو في إدارة أو في أي ميدان من الميادين، ويتهاون فيه ولا يُتقِنه، ويسرق من أوقات عمله فيدخل إليه متأخرًا، ويغادر مكان العمل قبل انقضاء الوقت، فهذا يُعَدُّ

(1) رواه النَّسائي وأحمد والبيهقي وغيرهم.
(2) رواه البخاري ومسلم والتِّرمذي وغيرهم، واللَّفظ للبخاري.
(3) رواه الطَّبراني والبيهقي.

غاشًّا في عمله وما يناله من أجر علىٰ ذلك العمل يُعَدُّ مالا حرامًا، لأنَّه يأخذ أجرته علىٰ ذلك الوقت، ولا يجوز له ولا يحقُّ له أن يُنفق الوقت إلاَّ في العمل، لأنَّ عقد العمل كعقد البيع والشِّراء، ولا يجوز فسخه، ومَن لم يُوفِ بشروطه يُحْرَمُ منافعه شرعًا، والملاحظ أنَّ الكثير لا يعطي لقضيَّة إتقان العمل اهتمامًا بالغًا، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ يُحِبُّ إذا عَمِلَ أحدُكُم عملاً أنْ يُتْقِنَهُ**»[1]، ولذا يجب عليك أنْ تخلصَ في عملك لله ﷻ، وتصْدُقُ فيه وتقوم به أحسن قيام، فلا تتعجَّل فيه، وينبغي عليك أنْ تُتْقِنَه، والإتقان معناه شِدَّة الإخلاص والصِّدق في العمل وتأديته علىٰ أحْسَن الوجوه.

إذن فالغِشُّ صفة قبيحة، ورذيلة من الرَّذائل ضررها شديد، ولو علِمَ من اتَّصف بذلك لما أقدم علىٰ الغشِّ أبدًا، ولكنَّه لا يعلم، بل هو يظنُّ أنَّ الغِشَّ قضاءٌ للمصالح ورِبْحٌ للأموال الطَّائلة، ولا يدري أنَّ الله ﷻ لا يبارك في المال الحرام ولا يُنَمِّيه، وإنَّما يبارِك في الحلال ولو كان قليلاً، وليستْ القضيّةُ وجود المال أو كثرته، ولكن اسأل الله أنْ يبارِك لك في قُوتك وفي وقتك، فإنَّ اللهَ إذا بارك لك في القليل من الحلال، فهذا يعني أنَّ فيه بركة في بدنك وفي حياتك، وفي رزقك وفي سعيك، وفي كلِّ ما يحيط بك من الأهل والأولاد، إذ العِبرة ليستْ بالكثرة، ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ: «**ليس الغِنَىٰ عن كثْرة العرْض، ولكنَّ الغِنَّىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ**»[2]، وجاء في حديث آخر عن النَّبيِّ ﷺ: «**القناعةُ مالٌ لا ينفد وكنزٌ لا يفْنىٰ**»[3].

والقناعةُ صِفة محمودة في الإنسان، وانظر إلىٰ حال سيِّدنا عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الرَّاشدين رضي الله عنه فلقد كان له لباس واحد عندما يغسِله يُغَطِّي بدنه بفراشه، وكان يُنفِق علىٰ نفْسِه من ماله الخاصِّ وهو أمير المؤمنين، ويبقىٰ سيِّدنا

(1) المرجع نفسه.

(2) رواه البخاري ومسلم والتِّرمذي وأحمد وغيرهم.

(3) رواه الطَّبراني.

عمر يُضْرَبُ به المثَلُ، ويُعَظَّمُ ويُذْكَرُ بالخير في هذا المجال، لأنَّ الشَّخصية لا يُثْبِتُها المال ولا اللِّباس، ولكنَّ الشَّخصيةَ أخلاقٌ عالية وسلوك طيِّبٌ.

وفي هذا القَدْر كفاية، وإلىٰ لقاء آخر إن شاء الله.

الدَّرس الثَّامن[1]

لطائف مقْتَبَسة من الحديث النَّبويِّ

«المُسْلمُ مَن سَلِمَ النَّاسُ مِن لسانِه ويدِه»

بعد تلاوة عطرة مباركة من أحد المُقرئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٞ ۝٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ۝٢٣ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: 10، 26]، قال الشَّيخ الجليل عليّ تابعيّ بن الصَّادق رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمُرسَلين، وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم تسليمًا كثيرًا، **أمَّا بَعْدُ**:

قال النَّبيُّ ﷺ: **«المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ من لسانِه ويدِه»**[2]، وهذا يعني أنَّ المُسلِمَ الممدوح مَن كان هذا وصفه، أيّ أنَّ المُسلِم الذي يستحقُّ المدح هو الذي سلِم المُسلِمون من لسانه ويده، وأفضلُ المُسلِمين من جمع بين أداء حقوق الله وحقوق النَّاس، ومن كمال الإسلام أن يجمعَ المُسلِمُ بين حقوق ربِّه وحقوق العباد، فيؤدِّي واجبات الله ولا يؤذي المُسلِمين لا بلسانه ولا بيده، وليست القضيَّةُ هنا محصورة في الإذاية باليد واللِّسان، ولكن المقصود سائر الجوارح، وقد جاء

(1) درس ألقاه الشَّيخ الجليل عليّ تابعي بزاوية عنابة.

(2) رواه البخاري ومسلم والتِّرمذي وغيرهم.

التَّركيز علىٰ اليد واللِّسان في الحديث الشَّريف إشارة إلىٰ أنَّهما أكثر الجوارح اقترافًا وعملاً للشرّ.

وترك إيذاء الغير أمر عظيم، وفي هذا الحديث إشارة إلىٰ حُسْن معاملة العبد مع النَّاس، لأنَّه إذا أحْسَن العبدُ معاملة إخوانه فأولىٰ أن يُحْسِنَ معاملة ربِّه، وذلك من باب التَّنبيه بالأدنىٰ عن الأعلىٰ، أي أنَّ الذي لا يُحْسِنُ معاملته مع الخَلْقِ لا يعرِف كيف يُحْسِن معاملته مع ربِّه، فإذا وجدتَ إنسانا مُتهتِّكًا مع إخوانه ولا يبالي بهم ولا يحترمهم، ولا يبشُّ في وجوههم ولا يقوم بحقوقهم، ولا يخاطبهم بالكلمة الطيِّبة والقول الحسن، فهذا دليل علىٰ أنَّه لا يقوم بحقوق الله، لأنَّ من لا يُحْسِنُ إلىٰ إخوانه المُسلِمين في المعاملة لا يُحْسِن معاملة ربِّه، لأنَّ المُسلِمين كلَّهم إخوة له بلا استثناء بدليل قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ **[الحجرات: 10]**.

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**أكملُ المؤمِنين إيمانا أحسنُهم خُلقًا**»[1]، وبماذا تُحْسِنُ أنت إلىٰ النَّاس؟ وإذا كلَّفناك أنْ تُحْسِنَ إلىٰ النَّاس جميعًا فلن تستطيع ولن تتمكَّن من ذلك، ولا يتأتَّىٰ لك الأمر، فلا أقلَّ من أنْ يسمعوا منك الكلمة الطيِّبة التي تبعثُ وتُشِعُّ في قلوبهم المودَّة والسُّرور، وتكفُّ عنهم الأذىٰ بيدك ولسانك وكلِّ جوارحك، وهذا أقلُّ ما تفعله معهم، وهو يُعَدُّ إحسانا منك إليهم، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّكم لا تَسَعُونَ النَّاسَ بأموالِكُم ولكن يسَعُهُم منكم بَسْطُ الوجه وحُسْنُ الخُلُقِ**»[2].

وبالمعاملة الحسنة لعباد الله ترتقي إلىٰ محبَّة الله، لأنَّ الله ﷻ يُحِبُّ مَن يُحْسِن إلىٰ عباده، ولا يرضىٰ عن من يُؤذيهم، بل يغضبُ عن من يُلْحِقُ بهم الأذىٰ، أو يمسّهم بسوء، أو يُكِنُّ لهم في قلبه حِقدًا وكراهية، أو يُدَبِّرُ لهم كَيْدًا ومَكْرًا، وسيعاقب الله ﷻ مَن يريد بالمُسلِمين شرًّا، ويتولَّىٰ الحقُّ ﷻ الدِّفاع عن

(1) رواه أحمد والحاكم وغيرهما.

(2) أخرجه البزَّار في مسنده، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان.

عباده المؤمنين مِصداقًا لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: 38]، ويقول الحقُّ ﷻ في آية أخرىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257]. وكما أنَّك أنت وليُّ أهلك وأولادك وأقربائك، ولا تقبَل مَن يمسّهم بأيِّ أذىٰ، فللَّه أقرباء وهم المؤمنون لا يرضىٰ لهم الأذىٰ مِن أي أحد، ويدافع عنهم ويتولاَّهم، واعْلَمْ أنَّك إذا كفَفْتَ أذاك عن المُسلمين من يدك ولسانك وسائر جوارحك فأنت تتقرَّب إلىٰ الله بذلك، وفي نفْس الوقت تنال محبَّة المُسلِمين.

وفي هذا القَدْر كفاية، وإلىٰ لقاء آخر إنْ شاء الله.

الدَّرس التَّاسع

الكلمة الطيّبة مفتاح قلوب الناس

لطائف وإشارات مقْتَبَسَة من الآية (٣٤) من سورة فصِّلت

بعد تلاوة مباركة عطرة من أحد المُقرئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: 30-35]، قال العارف بالله الشَّيخ عليّ تابعيّ بن الصَّادق رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمُرسَلين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين وسلِّم تسليمًا، **أمَّا بَعْدُ**:

إنَّ في معاملة المرء للنَّاس بالحُسْنىٰ تأثيرًا بالغًا علىٰ قلوبهم، وثمرة طيِّبة في نفوسهم، والكلِمة الطيِّبة تُشِّعُ في القلوب المودَّة والسُّرور، وتُدخِل عليها المحبَّة والحُبور، ولقد ضرب الله أروع الأمثال للكلِمة الطيِّبة فقال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: 24، 25].

إذن للكلمة الطيِّبة تأثير عجيب في تطهير القلوب وتزكية النُّفوس، ولقد حدث ذات مرَّة أنِّي كنت مع أحد الأشخاص، وكان عازمًا علىٰ السَّفر، فرافقتُه من

بيته إلىٰ محطَّة المُسافرين ليمتطيَ الحافلة في اتجاه الجزائر العاصمة لينتقل منها إلىٰ فرنسا، وأثناء مرافقتي جاد عليَّ الحقُّ ﷻ بمذاكرة أثَّرتْ في السَّامع تأثيرًا عميقًا، وهزَّت كيانه، وذهل عن نفسه، وغاب عن كلِّ ما هو حوله، وكان أخوه يمشي، وهو رجل ذو أخلاق فاسدة ويتعاطىٰ شُرب المُخدِّرات، وكان متضايقًا جدًّا بسبب النَّصائح والإرشادات التي كنتُ أُسديها لأخيه المسافر، وعندما وصلنا إلىٰ المحطَّة وحان وقت الرُّكوب وركب السَّائق نسي ذلك الرَّجل علىٰ أنّه علىٰ أهبة السَّفر، ولكنَّني ودَّعتُه وأشرتُ إليه بالرُّكوب فركب وهو في أشدّ التَّأثُّر بما كان يسمع منِّي.

وبعد ذلك التفتَ إليَّ أخوه الذي كان معنا وقال لي وهو في أشدِّ حال من الغضب: إنَّك ساحر، ولقد سحرتَ أخي بكلامك حتىٰ نسيَ كلَّ شيء، وأصبح لا يبالي بأيِّ أمر من أموره، ولا يهتمُّ بشأن الحافلة ولا بسفره إلىٰ فرنسا، وكان يُريد أن يغيظني بهذا الكلام، فقلتُ له: لقد ظهر لي أنَّك رجل طيِّب كريم الأخلاق والشِّيم، والله تبارك وتعالىٰ قد بلَّغني رسالة علىٰ فمك ولسانك بأنَّني أصبحتُ أتَّصف بصفة من الصِّفات التي عُيِّر بها النَّبيُّ ﷺ من قِبَل قومه وهي صفة السِّحْر، وإنِّي لفرح مسرور بكلامك هذا فازداد غضبًا ولم يدر ما يقول وافترقنا.

ولكنَّه ما لبث أن جاء بعد أيَّام قليلة لزيارتي وهو يبكي ويذرف الدُّموع ويطلبُ العفو والمُسامَحة، وقال لي: لقد أخطأتُ في حقِّك يا شيخ حين قلتُ لك: إنَّك ساحر، فأجبتُه قائلًا: لقد شرَّفْتني بكلامك هذا والمفروض أنِّي أُقَدِّم لك هدية، فأجابني والأسف الشَّديد يبدو ويظهر عليه: أنا الذي أخطأتُ في حقِّك، وأنا من يجب عليه أن يُقدِّم لك الهديَّة، فقلت له حينئذ: إذا اعترفتَ بأنَّك أخطأتَ في حقي فهديتك التي تقدِّمها لي هي أنَّك تعاهدني عن الكفِّ والامتناع عن شُرب المُخَدِّرات، فعاهدني علىٰ ذلك، وفعلا امتنع عن اقتراف تلك المُوبقات، وتاب إلىٰ الله ﷻ، وصلح حاله واستقام أمره مع الله ﷻ، ولو أنَّني واجهته بغير الحُسنىٰ وقلتُ له: كيف تصفني بأنِّي ساحر، فكيف ستكون النَّتيجة؟

ولقد كانت هذه المعاملة منِّي إلهاما من الله ﷻ، فبمجرد أن قال لي: إنَّك ساحر تذكرتُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ اتُّهِم بالسِّحْر، وفهمتُ من الله بأنَّ هذا الرَّجل كلَّمني

علىٰ لسان الحقِّ ﷻ، وبشَّرني بأنَّني أسْحَرُ النَّاس بكلامي، وبأنَّ فيَّ صفة من صفات الأنبياء (عليهم الصَّلاة والسَّلام) وهذه درجة عظيمة، ولهذا كلَّمني هذا الرجل علىٰ لسان الحقِّ وقال لي: إنّك ساحر تسحر النَّاس بكلامك، وهذه ليستْ مُهمَّتي وليستْ وظيفتي، وعلمتُ أنَّ كلامي خالص وخارج من الحقِّ إلىٰ الحقِّ، ولذلك سحرتُ الرَّجل الذي كان يستمع إلىٰ كلامي، وتلك الأمثال نضربها للنَّاس.

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّه لا يجب علىٰ الإنسان أنْ يغضبَ عندما يعيِّره غيره بما ليس فيه، بل عليه بالصَّبر، والله ﷻ يخاطبُ نبيَّه الكريم ﷺ بقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: 127]، وفي آية أخرىٰ: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: 48]، وقد يقول البعض كيف يكون المؤمِن عزيزًا علىٰ ربِّه والنَّاس يقولون عنه الكلام المُرَّ؟ وقد يظهر له أنَّ هذا الأمر غريب وفيه تناقض، والأمر ليس كذلك، وإنَّما أراد الله ﷻ أن يُعلِّمَك الصَّبر والتَّحمُّل، وطريق السُّلوك لا يصلح فيها العبد إلاَّ بهذا، فعليه بالتَّسليم باطنيًّا لتجري عليه الأحكام القهريَّة وغير القهريَّة.

وهو لن يُعَطِّل تلك الأحكام، وقد تعتري الغفلة نفسها في بعض الأحيان الفقراء الصَّادقين رحمة من الله ﷻ بهم، فيستيقظون بعدها ويجدون أنفسهم في الحضور، ولا يستطيع الشَّيطان أنْ يَغُرَّهم ويتلاعب بهم، لأنَّهم في حماية الحقِّ ﷻ، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

وإذن فعليك بقول الحقِّ ولو كان مُرًّا، ولكن القالب الذي يجب أن يُقال فيه الحقُّ هو قالب الملاطفة والرِّفْق، والرَّحمة والتَّودُّد، والمحبَّة والإحسان، وهكذا ينبغي أنْ تُوصِلَ الحقَّ إلىٰ غيرك، وليس بالغِلظة والشِّدَّة، ولا يجب عليك أن تُظْهِرَ الشَّماتة لأخيك، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**لا تُظْهِرِ الشَّماتَة لأخيك فيعافِيهِ اللهُ ويبتَلِيكَ**»[1]. **ومن آذىٰ مُسلِمًا فقد تعرَّض لأقصىٰ عقوبة من الله** ﷻ، ولذا قال

(1) رواه الطَّبراني بهذا اللَّفظ في المُعجم الكبير.

النَّبيُّ ﷺ في الحديث الشَّريف: «**مَن آذىٰ مُسْلِمًا فقد آذاني، ومَن آذاني فقدْ آذىٰ اللهَ**»[1].

إنَّ الإذاية أنواع، وقد تكون ولو بكلمة تُؤْلِم بها قلب أخيك المُسلِم، ومن الأذىٰ التَّضْيِّيق عليه في المجلس، وممَّا يُؤذي المُسلِمين الرَّائحة الكريهة، ولذلك نحثُّ الفقراء علىٰ استعمال العطور والرَّوائح الطيِّبة في مجالسهم، لأنَّها مجالس تحضرها الملائكة وتحفُّ بها، وقد كان النَّبيُّ ﷺ يحبُّ الطِّيبَ ويحثُّ علىٰ استعماله، ولذا قال ﷺ: «**حُبِّبَ إليَّ من الدُّنيا النِّساء والطِّيب، وجُعِلَتْ قُرَّة عيني في الصَّلاة**»[2]، وعلينا أن نستعمل الطِّيبَ لله وابتغاء مرضاته، وتعظيمًا لمجالس الذِّكْر والذَّاكرين واهتمامًا بمجالس العِلْم والعُلماء، ومحبَّةً في مجالس أولياء الله مِن عباده الصَّالحين.

وفي الأخير أوصيكم بالمُعاشرة الحَسَنة، وإشاعة الكلِمة الطَّيِّبة السَّمحة بينكم التي تُدْخِل السُّرور علىٰ القلوب وتحافظ علىٰ صفائها وطهارتها، وعليكم بالإقبال علىٰ الله ﷻ بعزْم شديد وهِمَّةٍ عالية، وتناسوا عيوب ونقائص بعضكم بعض، وتعاونوا علىٰ البِرِّ والخير والهُدىٰ والرَّشاد، فإنَّ هذا هو العمل بالطَّريق، لأنَّ الطَّريق هو تطبيق الإسلام تطبيقًا عمليًّا في حياة المُسْلِم.

(1) رواه الطَّبراني في المعجم الأوسط.

(2) رواه النَّسائي وأحمد والبيهقي وغيرهم، واللَّفظ للنَّسائي.

الدَّرس العاشر[1]

لطائف وإشارات مقْتَبَسَة من آيات كريمة في سورة المؤمنون

بعد تلاوة عطرة مباركة من أحد المُقرئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: 1-11]، قال الشَّيخ الجليل عليّ تابعيّ بن الصَّادق رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمُرْسَلين، وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم تسليمًا، **أما بعد:**

يقول الله ﷻ: ﴿﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: 1-3]، أيْ أنَّ من صفات المؤمنين أنّهم يُعرِضون عن اللَّغو، فما هو اللَّغو؟ اللَّغو هو كلُّ ما لا يُعتدُّ به من كلام وغيره، والذي لا فائدة من ورائه، أيّ كلُّ ما لا يفيدك في دينك وفي دنياك، ولا يَحصل منه علىٰ فائدة ولا نفع، وأَمْرُ المؤمن كلُّه جِدٌّ لا هزْل فيه، ولا ينبغي أنْ يُضَيِّعَ وقته فيما لا يعنيه، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**مِن حُسْن إسْلام المَرْء تركُه ما لا يَعْنِيه**»[2].

---

(1) درس ألقاه الشيخ الجليل علي تابعي بزاوية عنابة حول موضوع «كيف يكون حال المؤمن حتّىٰ تكون كلُّ تصرفاته جِدًّا».

(2) رواه الإمام مالك في الموطأ والتِّرمذي وابن ماجه والإمام أحمد وغيرهم.

واللَّغو يشمل كلَّ ما يصدر عن الإنسان من قول وكلام وفِعل وحركة، وكما أنَّ اللَّغو يتعلَّق بالنَّظر والسَّمع والسَّعي وسائر الأمور، فمثلاً عندما يضع أحدنا كتابًا في موضع ما فإذا أتىٰ آخر وتناول الكتاب وقرأه بدون إذن صاحبه، فهذا العمل يُعَدُّ لغوا وتعدِّيًا علىٰ الغير لا يليق أنْ يصدر من مُسْلِم، ولهذا يطلب الإسلام من المُسلِمين أن تكون كلُّ حركة من حركاتهم مُقَوَّمة تقيِّيمًا إسلاميًّا شرعيًّا، وكما يحثُّ الإسلام أتباعه علىٰ أن لا تكون تلك الحركة لهوا وعبثًا، ويُعلِّمهم الجِدَّ حتىٰ في ألعابهم.

فلا يجب أن يكون اللَّعب لأجل اللَّعب، بل ينبغي أن يكون له هدف إسلامي يحقِّقه، وله غرض تتطلَّبه جِدِّيَةٌ في الحياة، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ في الحديث الشّريف: «**كلُّ شيء ليس فيه ذِكْرُ الله فهو لهوٌ ولَعِبٌ إلاَّ أربع مُلاعَبَةُ الرَّجُل امرأتَه، وتأديبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ، ومَشْيُه بين الغرَضين[1]، وتعليمُ الرَّجُلِ السِّباحة**»[2].

وإذن فاللَّهو هو كلُّ ما ألهاك وشغلك عن طاعة من طاعات الله، واللَّعِبُ هو ما يُضَيِّعُ لك وقتك من دون فائدة، وكما قيل: «الوقْتُ من ذَهَب إنْ تركتَه ذَهَب»، فلا تترك نَفَسًا من أنفاسك بدون شُغل يضيع سُدًىٰ، واستغِلْ كلَّ وقت من أوقاتك في أمر مُهِمٍّ كالذِّكْر والتَّسبيح والتَّحميد والتَّهليل، ولا تسمح لأحد أن يُشغِلك عن ربِّك فيما لا فائدة فيه، وعلىٰ كلِّ مُسْلم أنْ يكون لسانُه إمَّا مُتلفِّظًا بالتَّوحيد، أو تاليًّا للقرآن أو يتعلَّم به العِلْم، أو يُعلِّم به غيره، أو ذاكرًا، أو مُستغفرًا الله، فإذا قام بكلِّ الأمور السَّابقة فلن يجد وقتًا للَّغوِّ، والإسلام جاء ليعلِّمنا الالتزام بالآداب والجِدَّ وترك الهزْل واللَّغوِّ، والإقبال علىٰ الله ﷻ بالكُلِّية.

وقد نزل القرآن الكريم في شهر رمضان المُعَظَّم، وكأنَّ الله ﷻ أراد أنْ يُبيِّن لنا في رمضان سُلوك الدِّين، وكيف يكون سلوك المُتَدَيِّن في حياته جادًّا مُقْبلا علىٰ ربِّه، يستغِلُّ كلَّ أنفاسه في طاعة مولاه، ولا يُضَيِّع وقته فيما لا يعنيه، ويكون لسانُه مُمْسِكًا عن اللَّغوِّ والكلام البذيء الذي يُؤذي المُسلمين، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ:

(1) الغرض: هو الهدف الذي يُنْصَبُ فيُرْمىٰ فيه. (جامع الكتاب).

(2) رواه النسائي والطَّبراني.

«**الصِّيامُ جُنَّةٌ، فإذا كان أحدُكم صائمًا فلا يرفُثْ ولا يجهَلْ، فإن امْرُؤ قاتله أو شاتمه فليقُلْ: إنِّي صائم إنِّي صائم**»[1]، وذلك ليعلِّمك الإسلام كيف تكونُ رحمةً لغيرك، ولا تكنْ فِتنةً عليهم، وكيف تكونُ بينك وبين النَّاس مودَّةً وصِلةً وأُخُوَّةً.

وإذا قلتَ لمن أراد أن يسبَّك أو يشتمَك أو يجهل عنك إنِّي صائم، فإنَّه يندم علىٰ فِعله، ويرجع علىٰ نفْسِه باللَّوم ويزداد فيك محبَّة، وهكذا تُغرَسُ المحبَّةُ في القلوب، ويحصل التآلف والوِفاق، ونتعلَّم في رمضان هذا السُّلوكَ الطَّيِّب، وعلينا أنْ نكون علىٰ هذه الحال سائر حياتنا، لأنَّ الهدف من رمضان الحصول علىٰ حماية من الهوىٰ وحظوظ النّفْس وشهواتها، ومن تسلُّط الشَّيطان علينا بعد رمضان.

وأمَّا إذا كان الهدفُ من رمضان هو صوم العادة، وإذا أفطرنا بعد رمضان نعود إلىٰ عاداتنا التي أَلِفْناها وتتهتَّك أخلاقنا وسلوكياتنا، ونترك ما كنَّا نتعبَّد به في رمضان، فهذا معناه أنَّنا نعبدُ رمضان ولا نعبد الله، وكأنَّ ما بعد رمضان فرصة للرَّاحة والتَّخلِّي عن الالتزامات الدِّينيَّة، وهذا خطأ وفضيحة كبيرة بالنِّسبة للمُسلِم، لأنَّ الدِّين جاء ليُلزِمَ المُسلِم بأوامر ربِّه وترك نواهيه، والإقبال عليه بالطَّاعات والأعمال الصَّالحة.

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ علىٰ المُسْلم أن يكون مُلتزمًا بدينه في سائر الأيَّام، وأن يتعامل مع إخوانه المُسلِمين معاملة حسنة فلا يسبُّهم ولا يشتمهم ولا يُعيِّرهم، وليس هذا في شهر رمضان فحسب، وإنَّما في سائر الأيام، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**سِبابُ المؤمِن فُسُوقٌ وقِتاله كُفْرٌ**»[2]، وقد يتسبَّب المرءُ في سبِّ ولعْنِ والديْه، وهذا يُعَدُّ من العقوق كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**مِن أكْبر الكبائرِ أن يلْعَنَ الرَّجُلُ والديْه، قيل: يا رسول الله وكيف يَلْعَنُ الرَّجُلُ والدَيْه؟ قال: يسبُّ الرَّجُلُ أبا الرَّجُل فيسبُّ أباه وأمَّه**»[3].

---

(1) رواه الإمام مالك في الموطَّأ بهذا اللَّفظ.

(2) رواه البخاري ومُسلم والتِّرمذي وغيرهم.

(3) رواه البخاري.

وإذن القضيَّة ليستْ خاصَّة برمضان كما يفهم البعض، ولكن رمضان خُلْوة وتجريد، وحصانة وحماية، ووِقاية وجُنَّة، ورمضان كلُّه خير، وعلىٰ المؤمن المحافظة علىٰ طاعة ربِّه، والاجتهاد في ذِكْرِه والالتزام بعبادته في سائر الأوقات، وأنْ يحرصَ علىٰ المحافظة علىٰ الصَّلاة جماعة في بيوت الله، ومَن قصد بيت الله فقد جاء زائرًا لله، وحقٌّ علىٰ المزور أن يُكرِم زائره، أفلا تُحِبُّ أن يُكرمك الله؟ ورُوي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: قال الله ﷻ في بعض الكتب: «**إنَّ بيوتي في أرضي المساجد، وإنَّ زُّواري فيها عُمّارُها، فطُوبىٰ لعبد تطهَّر في بيتِه، ثمّ زارني في بيتي، فحقٌّ علىٰ المزور أن يُكرِم زائِرَه**»[1].

واعلم بأنَّك منذ أنْ تبدأ في التَّفكير في الصَّلاة وكأنَّك في الصلاة، فخُطاك إلىٰ بيوت الله عبادة، وعندما تنتهي من صلاتك الأولىٰ ويكون فكرك متعلِّقًا بالصَّلاة التي بعدها فأنت موصول بربِّك صلة غير مقطوعة، ولذا قال الرَّسول ﷺ: «**الصَّلاةُ المكتوبةُ إلىٰ الصَّلاة التي بعدها كفَّارةٌ لما بينهما ...**»[2]، وكيف تكون الصَّلاة المكتوبة إلىٰ الصَّلاة التي بعدها كفَّارة لما بينهما؟ وذلك بالمحافظة علىٰ الحضور مع الله فيما بين الصَّلاتين، ومراقبة الله ﷻ الدَّائمة، فعليك أن تُلزِم نفسك لتبقىٰ علىٰ نيَّة الطَّاعة وفعلها، والسَّعي إليها.

وينبغي أن تكون كلُّ حركاتك في الحياة بين الصَّلاتين طاعة لربِّك، وبذلك يكون ما بينهما لك كفَّارة، لأنَّه قد تقع منك أمور طفيفة لا تحسب لها أي حساب، ولا تُلقي لها بالاً، ولكنها ذنوب، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: 31]، ويجب علىٰ المؤمن أن يكونَ باله متعلِّقًا بربِّه، ويحرص أنْ يعود لمناجاته ليبُثَّ إليه شكواه.

وفي هذا القَدْر كفاية، وإلىٰ لقاء آخر إنْ شاء الله.

---

(1) ذكره الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه الإحياء.

(2) رواه الإمام أحمد.

الدَّرس الحادي عشر[1]

كيف تكون مخلصًا في حياتك

لطائف مقْتَبَسة من حديث نبويٍّ شريف

بعد تلاوة مباركة عطرة من أحد المُقرئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 1-5]، قال العارف بالله الشَّيخ عليّ تابعيّ بن الصَّادق رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمُرسَلين، وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم تسليمًا، **أمَّا بَعْدُ**:

يُميِّز الكثير من النَّاس بين الخَيْر والشَّرِّ انطلاقًا من محبَّة النَّفْسِ، فما أَحَبَّتْهُ هذه النَّفْسُ أحبُّوه واعتقدوا أنَّه خيرٌ، ولكنَّه قد يكون شرًّا، وما كرِهتْه النُّفوس ولم ترض عنه يُسَمَّىٰ في مفهومهم شرًّا، وهذا أمر غير صحيح، لأنَّه يُنافي الإيمان بالقضاء والقَدَر، ولأنَّ اختيارنا هو ما تختاره النَّفْسُ وما تشتهيه، وكلُّ اختياراتها شرٌّ، لأنَّها جاءت من عالِم الإطلاق، وهي تكره القيود ولا تحبُّها.

وكثيرا ما نسمع من يقول: أنا حرٌّ، وهذا كلام النَّفْس، وصاحبه يرىٰ

(1) درس موسوم بـ«كيف تكون مُخلِصًا في حياتك»، ألقاه الأستاذ الفاضل الشيخ الجليل علي تابعي بناحية «عرقوب عيسىٰ» ولاية أم البواقي بتاريخ 10 جويلية 1989م، علىٰ ضوء الحديث النبوي الشريف «**أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا هذا الشِّرك، فإنَّه أخْفَىٰ من دبيبِ النَّمل**».. (جامع الكتاب ومدونه).

الفوضىٰ هي الحرية، ويأبىٰ النِّظام، ويرفض الشَّرع إذا كان يتعارض مع مصلحته، ويلتجئ إلىٰ الكذِب ونقْض العهود، وإلىٰ الخيانة وعدم المحافظة علىٰ الأمانة وإلىٰ الفجور وقول الزُّور، وكلُّ ذلك ليصل إلىٰ أغراضه إمَّا بدفع تُهمة عن نفْسه، أو للوصول إلىٰ غرض يريده في الحياة، وهذه تصرفات كلُّها رِياء وشِرْك خفيٌّ، ولقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**الشِّرْكُ أَخْفَىٰ مِنْ دَبِيبِ الذَّر عَلَىٰ الصَّفَا في اللَّيْلَة الظَّلماء ...**»[1]، والذرُّ صِغار النَّمل، والحديث يشير إلىٰ دقَّة الشِّرك الخفيِّ، ولِدِقَّته لا يكاد يشعر به الإنسان، ولا بدَّ عليه من الخروج منه والتخلُّص من شرِّه، وذلك بعِلْم يعمل به ويذوق ثِماره لينجو من هذا الشِّرك الخفيِّ الذي يُحْبِط الأعمال..

إنَّ السَّبيلَ للنَّجاة من الشِّرك الخفيِّ هو الإخلاص لله، فما معنىٰ الإخلاص؟ الإخلاصُ أنْ تُخلِص القصد لله في الأقوال والأعمال وفي كلِّ معاملاتك وحركاتك وسكناتك، وعليك في كلِّ ذلك أنْ تنطلقَ من أنَّ المُحرِّك لك والمتصرِّف فيك والذي استعبدك وأنعم عليك بظاهر النِّعم وباطنها هو الله جلَّ جلاله، ولذا ينبغي عليك أن لا تتصرَّف بتلك النِّعم تصرُّفات لا تُرضيه، ولا ينبغي أن تتحرَّك حركة ليست منسوبة لربِّك، وليستْ خالصة لوجهه الكريم، وهذا منطلق الإخلاص عمومًا، ولا يجب عليك أن تَنْسِبَ القول أو الفعل أو النِّعمة أو الحركة لغير الله، فإنْ تحرَّكتَ فانظر من الذي حرَّكك؟ وإذا لبِسْت ثيابك فأبصر مَن الذي كساك وألبسك؟

وهذه الأمور نجدها في الأذكار الشَّرعيَّة المعروفة بأذكار اللِّباس، ولكنَّنا لغبائنا نُعِدُّها شكليات ولا نهتَّم بها، وإذا قرأناها وسمعناها فإنَّنا نأخذها علىٰ أنَّها مجرَّد ألفاظ وكلمات نردِّدها كالببغاء بلا شعور ولا ذوق، وبلا حياة ولا مُعايشة، والبعض يتحدَّث عن الإخلاص، ولكنَّه لا يهتمُّ به، فإذا تعارضتْ مصلحته أو مصلحة أحد أقاربه مع دين الله فلا عِبرة للإخلاص عندئذ عنده، ولا يهمُّه إلاَّ رِضا النَّاس عنه ولو كان في ذلك غَضَبُ الله وسخَطُه.

(1) رواه الحاكم في المستدرك.

وإذن على الإنسان أن يكون مُخْلِصًا حتَّى يصل إلى دِقَّة الإخلاص فتنعدم نسبة الأقوال والأفعال إلى نفْسه، فإذا رجعتَ إلى نفْسك ونسبْتَ الأمور إليها فقد قُطِعْتَ عن ربِّك، لأنَّك ادَّعيْتَ ما ليس لك، وذَكَرْتَ نفسك ولم تَذْكُرْ مولاك، وقد أحاط بك البلاء -والعِياذ بالله- لأنَّ الله جلَّ جلاله قال في الحديث القدسي: «**الكِبرياءُ رِدَائي والعظَمَةُ إزاري، فمَنْ نازعني واحدا منهما قَذَفْتُهُ في النَّار**»[1]، وبنسبة أقوالك وأفعالك إلى نفْسِك قد حُجِبْتَ عن ربِّك، ورُبَّ عاصٍّ مُتذلِّل بين يدي الله أخلصَ نفْسَه له خيرٌ من طائع معتزٍّ بطاعته، ولذا قال ابن عطاء الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «معصيةٌ أورثَتْ ذُلاً وافتقارًا خيرٌ مِن طاعَةٍ أورثَتْ عِزًّا واستِكبارًا».

وعبادة الله إنَّما تكون بالتَّذلُّل والخضوع، والخشوع والخنوع لله، فإذا تكبَّرتَ بطاعتك وتجبَّرتَ بها، وذكرْتَ نفْسَك ونسبتَ الفِعْل لها فقد حُجِبْتَ عن ربِّك، ولو كنتَ موصولاً بمولاك لما شاهدْتَ نفسك، وما هو الأمر الذي يعود بالإنْسان إلى نفسه؟ إنَّه حُبُّ الذَّات والتَّعلُّق بالحظوظ والشَّهوات وعدم الإخلاص في العمل لله، وأهل اللُّغة يقولون: أخْلَصَ فلان دِينه لله، أيْ مَحَّصَ أقواله وأفعاله وحركاته في الحياة فأصبحت لا نسبة فيها لغير الله، وقد تُشْرِكُ بالله نفْسَك، وقد تُشرِكُ به قولك أو فعلك، وعندما تدَّعي الأنانية وتنسُبُ الأشياء إلى نفْسَك وتقول: أنا..، فمَن أنت؟ إنَّ مصيرَك الفناءُ، وربُّك مَوْصُوفٌ بالبقاء، وأنت أوَّلك مَذِرَةٌ، وآخرتك جيفة قذِرة، فانتبه لنفْسِك، وكما قال أحد العارفين: «ما بَالُ مَنْ أوَّلُهُ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ، وآخِرُهُ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وَهوَ بين ذلك وِعَاءٌ لقَذِره أنْ يَفْخَرَ».

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ يعني تمحيص الإنسان دِينه لربِّه وتركه الرِّياء، وأنْ لا يُشْرِك بالله أحدًا، والله سبحانه عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 110]، ولقاء ربِّه أيّ النَّظر إلى وجهه الكريم، فإذا تحرَّكْتَ أي حركة ونسبتها إلى نفْسِك فقد أشركت نفْسَك بالله، وما دمتَ مؤمنا تسعى لأنْ

(1) رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد وغيرهم، واللَّفظ لأبي داود.

تُحَقِّق العبودية في نفسك لله فديْنُك يطلب منك أن تُقْبِل علىٰ الله بكلِّ إخلاص، لأنَّ الدِّينَ يعني الطَّهارة في كلِّ حركات الحياة، وينبغي أنْ يكون قصدُك الله في كلِّ تصرفاتك ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 19].

ولماذا تغْضُضْ من صوتك؟ لأنَّك إذا كنتَ تتلو القرآن فالله ﷻ يخاطبك وأنت تسمع منه، أفلا تتأدب مع ربِّك؟ ولكنَّك أنت في حَضْرَة نفْسك ولستَ في حضرة ربِّك، وهذا الذي يدعوك لرفع صوتك، ولو شعرتَ بأنَّك في حضرة مولاك لما استطعتَ ذلك، وكان من الواجب عليك عندما تتحرَّك أن لا تتحرَّك إلا بإذن الله، تُنَفِّذ أوامره وتنتهي عن نواهيه، وليس لك مقصدٌ سواه، وترحل إلىٰ ربِّك من هنا ويهنأ بالك، وليكن همُّك في كلِّ أمر أن تعود إلىٰ الله في أقوالك وأفعالك وفي كلِّ حركاتك وسكناتك، ولكي تعايش الإخلاص عليك أنْ تنسبَ الأقوالَ والأفعالَ كلَّها لله، لأنَّه لا حركة ولا سكون إلا بإذنه ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: 29].

الدَّرس الثَّاني عشر

كيف نتعامل مع بعضنا حتّى نكون كالجسد الواحد

لطائف مقْتَبَسة من الحديث النَّبويِّ الشريف «مَثَلُ المُؤمِنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مثل الجسدِ ....».

بعد تلاوة مباركة عطرة من أحد المُقْرئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 71، 72]، قال الشَّيخ الفاضل عليّ تابعي بن الصَّادق رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

إنَّ الحمدَ لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ به من شرور أنْفُسنا وسيِّئات أعمالنا، مَن يهده الله فهو المهتدي ومن يُضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا، وصلِّ اللَّهُمَّ علىٰ سيِّدنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم تسليمًا كثيرًا، ربَّنا هبْ لنا من لدنك رحمة وهيِّئ لنا من أمرنا رشدًا، وعلِّمنا مِن لدنك عِلْمًا، **أمَّا بَعْدُ:**

يقول النَّبيُّ ﷺ: «**مَثَلُ المؤمِنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مَثَلُ الجسدِ إذا اشتَكىٰ منه عُضْوٌ تَداعَىٰ له سائرُ الجسدِ بالسَّهَرِ والحُمَّىٰ**»[1]، ولن يسود الإسلام بدون أنْ يكون المسلمون جسدًا واحدًا وروحًا واحدة وكلمة واحدة، والإسلام يدعونا إلىٰ التَّوادِّ والتَّراحم، وهذا لا يمكن أنْ يكون إلاَّ بطهارة القلوب، فعندما

(1) رواه مسلم وأحمد والبيهقي وغيرهم، واللَّفظ لمسلم.

تصفو القلوبُ وتصبح متعلِّقة بالحقِّ جلَّ جلاله، وتتطهَّر من الضَّغائن، وتتخلَّص من الشُّكوك والأوهام، وتزول منها الأحقادُ والبغضاءُ، وتتنزَّه عن المكْر والحِيَّل والخِيَّانة، وتسمو عن حُبِّ الجاه والرِّياسة، ورؤية الفضْل علىٰ الغير، وتزهد في حُبِّ الدُّنيا ومتاعها وزخارفها، إذا حدث كلُّ هذا سيكون المُسلِمون كالجسد الواحد يحسُّ الواحد بالآخرين، وكلُّ الآخرين يحسُّون به ويهتَّمون.

وأنا بودِّي راجيًا الله أنْ يعمل كلُّ الفقراء والمُريدين وأتباع هذه النِّسبة الكريمة لتكون كلِمتنا في كلِّ مكان ككلمة رجل واحد، ومِن أجل هذا علينا أنْ نتعاون لتقوىٰ الرَّابطة وتحصل المودَّة والمحبَّة بيننا، والإطعام مَوَدَّة، والكلمة الطيِّبة مَوَدَّة، واستقبالك لأخيك المؤمن بوجه بشوش طَلْق مَوَدَّة، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ في الحديث الشَّريف: «**تَبَسُّمُك في وجْهِ أخِيكَ صَدَقَةٌ ...**»[1]، وممَّا يُنْبِتُ المحبَّة في القلوب التَّهادي وهو أن يُهدي بعضهم إلىٰ بعض، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**تَهَادَوْا تحابُّوا**»[2]، وفي رواية أخرىٰ قال (عليه الصَّلاة والسَّلام): «**تَهَادَوْا فإنَّ الهديَّةَ تُذهِبُ وغَرَ[3] الصَّدْر**»[4].

وإذن طريق التَّوادِّ هو السَّبيل إلىٰ إشاعة المحبَّة في القلوب، وكلُّ منَّا يستطيع أنْ يودَّ أخاه بالإطعام ولو بفنجان من القهوة، لأنَّ الفقراء ليس هدفهم الأكل، بل هدفهم الاجتماع علىٰ ذِكْرِ الله ﷻ، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا جاءه أحد يجمع له بين الذَّوقين: ذوق المُذاكرة وذوق الإكرام والإطعام، وهذه طبيعة يجب أنْ يتحلَّىٰ بها كلُّ فقير اقتداء برسول الله ﷺ، ولا ينبغي أن يتخلَّىٰ عنها، وكما يجب علينا أنْ نتعامل مع بعضنا البعض بالحُسنىٰ، ولا يحمل أحدنا حِقْدًا ولا غِلًا في قلبه لأخيه من جرَّاء الإساءات التي قد تقع، لأنَّ الإنْسان بشر يمكن أن يُخطئَ وتصْدُر منه

(1) رواه التِّرمذي والطَّبراني وابن حِبَّان بألفاظ متقاربة.
(2) رواه البيهقي في شُعب الإيمان.
(3) تُذهِبُ وغر الصَّدر يعني تُزيل الغيظ والحِقْد منه. (جامع الكتاب).
(4) رواه الإمام أحمد في مسنده.

الإساءة، وقد يفعل ذلك دون شعور، أو يقول كلاما لا يزِنه ولا ينتبه له، وطريق السُّلوك والتَّربية تطلب منَّا أن نعفو عندما نُظْلَم، ونصفح عندما يُسَاءُ إلينا.

ولـمَّـا نـزلـت الآيـة الـقـرآنـيَّـة الـكـريـمـة: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، سأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام عنها فقال: لا أدري حتَّىٰ أسأل، فعرج ثُمَّ رجع، فقال: «يا محمَّد، إنَّ اللهَ يأمرُك أنْ تصِل مَن قَطَعَكَ، وتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وتَعْفُو عمّن ظَلَمَكَ»، وهذه هي طبيعة المؤمِن الذي له اقتداء حقيقيٌّ برسول الله ﷺ، ولقد علَّمنا الحقُّ ﷻ كيف نتعامل مع من يُسيء إلينا فقال عزَّ من قائل: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: 34-36].

وإذا حدث أنْ وقع من أحد إخواني أمْرٌ غير طيِّب فيه إساءة لي، فلا يجب عليَّ أن أقابلَه بالمِثل، بل ينبغي عليَّ أن أعامله بزيادة الإحسان، لأنَّني أريد أنْ أداويه وأخلِّصه من نفْسِه، وأحاول أنْ أُزيل تلك النُّكتة السَّوداء التي نُكِتتْ في قلبه بسبب إساءته، وبإحساني إلىٰ أخي يرفع الله تبارك وتعالىٰ بفضله الحِقْد والكراهية من قلب ذلك الأخ، فيصفو من كَدَرِه ويُشْفَىٰ من مرضه، ولقد علَّمنا الإسلام طريقًا لإزالة الأحقاد ولمعالجة الأمراض القلبية كالحسد والبغضاء والعُجْب والكِبْر وغيرها من الأمراض والعِلَلِ، والسَّبيل إلىٰ كلِّ ذلك هو الإحسان والإكرام، والمُسلِمون كالجسد الواحد، وإذا فَسَدَ قلبٌ سرىٰ ذلك الفساد إلىٰ القلوب كلِّها ففسدتْ.

وممَّا سبق يتبيَّن لك أنَّ أخاك المؤمِن المريدَ عَوْنٌ ومُؤْنِس لك في الحياة، ورفيقك في طريق أهل الله، طريق التَّربية والسُّلوك، وعليك أنْ تُحْسِنَ إليه ولو بكلمة طيِّبة أو نظرة صافية، فإنَّ لكلِّ ذلك تأثيرًا في النفوس يزيد في الألفة والأُخوة وتمتين روابط المحبَّة، وهذا هو ما تسعىٰ هذه النِّسبة إلىٰ نَشْره بين أتباعها وبين كلِّ المُسلِمين.

وإذن فالطَّريق رحمةٌ مُهداة من الله ﷻ دخلتْ البيوتَ فأشرقتْ بنور الذِّكْر، وتسلَّلَتْ إلىٰ القلوب فتطهَّرتْ، واستنارتْ بها العقول، وتزكَّتْ بها النُّفوس، وعرجتْ بها الأرواح إلىٰ حضرة ربِّها فطاب لها المُقام، وعلينا أنْ نقابل هذه الرَّحمة بدوام الشُّكر ليزيدنا الحقُّ من فضله الواسع، لأنَّه قال في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7]، والعذاب الشَّديد هو إزالة النِّعمة، فلكي لا يسلب الله ﷻ منَّا النِّعم يجب علينا المحافظة علىٰ هذه النِّعم، وذلك بدوام الشُّكر والتزام الحضور مع الفقراء ومحبَّتهم، والانسلاخ عن الأنانية والنَّفس والهوىٰ، والمداومة علىٰ الاستقامة والعمل الصَّالِح.

وفي الختام أسأل الله لي ولكم التَّوفيق والهِداية والرَّشاد، وأن يجعلنا من العارفين المُتَّقين ومِن عباده الصَّالحين المُخْلِصين، إنَّه علىٰ ذلك قدير وبالإجابة جدير، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالَمين، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدَّرس الثَّالث عشر

مَعْنَى اسْتِغْفَار المَلائِكَة لِلْمُؤْمِنِينَ والدُّعاء لَهُم

بعد تلاوة مباركة عطِرة لأحد المُقرئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: 7-9]، قال العارف بالله الشَّيخ عليّ تابعي بن الصَّادق رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمُرْسلِين، وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم تسليمًا، **أَمَّا بَعْدُ**:

قال العارف بالله ابن عجيبة رحمه الله في تفسيره البحر المديد: «...ثُمَّ قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي ويستغفر الملائكة لمَن شاركهم في حالهم من الإيمان، وفيه دليل علىٰ أنَّ الاشتراك يجب أن يكون أدعىٰ شيء إلىٰ النَّصيحة والشَّفقة وإنْ تباعدتْ الأماكن، وفي نظم استغفارهم لهم في سِلْك وظائفهم المفروضة عليهم من تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم إيذان بكمال اعتنائهم به، وإشعار بوقوعه عند الله تعالىٰ موقع القبول».

إنَّ الملائكة يدْعُون للمؤمِنين ويستغفرون لهم، وهكذا يفعل المؤمِن بأخيه، فالملائكة مؤمنون ونحن مِن جُملة المؤمنين. والمؤمنون إخوة كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [**الحجرات: 10**]، فالملائكة إخوة لنا من حيث الإيمان، ومن حقِّ الإخوة أن يدعو لبعضهم البعض، وأن يستغفر بعضهم لبعض، وهكذا شأن

المؤمِن مع أخيه في الإيمان، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**لا يؤْمِنُ أحدُكم حتَّىٰ يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفْسه**»[1]، ولماذا البعض منَّا لا يُحِبُّ لأخيه ما يُحِبُّه لنفسه؟ ذلك بسبب التَّعلُّق بالحظوظ النَّفسية وعدم التَّعلُّق بمحبَّة الله، والاهتمام برغبات النَّفس وشهواتها، وعدم الاهتمام بعلاقة العبد بربِّه، وعدم تحقيق العبد العبودية لله في نفسه.

وممَّا يمكن استنباطه من الآية الكريمة السَّابقة أنَّ استغفار الملائكة للمؤمنين وسيلة، وفي هذا ردٌّ علىٰ من يُنْكِر قضية الوسيلة، ويُعَدُّ دعاء الملائكة الكِرام للمؤمنين وسيلة أيضًا، وهذا الدُّعاء أعظم صِلَة بين الملائكة وبين المؤمِنين، ومن حقِّ المؤمِنين أن يكونوا علىٰ صِلَة تامَّة بالملائكة الأطهار، ومِن الواجب عليهم أن يتجانسوا معهم في ألوان التَّسبيح وأنواع العبادات مِن قيام وركوع وسجود وما إلىٰ ذلك من سائر الطَّاعات، وهذا ما يجب أنْ يفعله المؤمِنون.

قال العارف بالله ابن عجيبة رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره «﴿رَبَّنَا﴾: «أي يقولون: ربَّنا، إمَّا بيان لاستغفارهم أو حال ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي وسِعَتْ رحمتُك وعِلْمُك كلَّ شيء، فأُزِيل الكلام عن أصله بأن أُسنِد الفِعل إلىٰ صاحب الرَّحمة والعِلْم، ونُصِبًا علىٰ التَّمييز مبالغة في وصفه تعالىٰ بالرَّحمة والعِلْم وفي عمومهما، وتقديم الرَّحمة لأنَّها السَّابقة والمقصودة هنا، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ أي للذين عَلِمْتَ منهم التَّوبة ليُناسِب ذِكر الرَّحمة، ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي طريق الهدىٰ التي دعوتَ إليها».

والتَّائبون هم الذين خرجوا من ذُلِّ المعاصي وانتقلوا إلىٰ عِزِّ الطَّاعات، ورحلوا من مساوئ الرَّذائل إلىٰ محاسن الفضائل، وحقيقة التَّوبة الصَّادقة قلع ثياب المعاصي وارتداء لباس الطَّاعات، وتمعَّن في سرِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ فسبيل الله في الظَّاهر هو الإسلام، وأمَّا في الباطن فإنَّ دعاء الملائكة يشمل كافَّة المؤمنين من العامَّة والخاصَّة وخاصَّة الخاصَّة، لأنَّ عامَّة المؤمنين لهم سبب في

(1) رواه البخاري ومُسلم والتِّرمذي وغيرهم.

هذا السَّبيل، وخاصَّة المؤمنين لهم قَدَمٌ في هذا الطَّريق، وخاصَّة الخاصَّة منهم السَّائرون والسَّالكون في هذا الميدان، وهم المُجِدُّون الذين لا يهدأ لهم بال ولا يسكن لهم حال ولا يطمئن لهم قلب إلاَّ أنْ يصِلوا إلىٰ معرفة ربِّهم.

ومعرفة الله ﷻ فرض عين علىٰ كلِّ مُسْلِم ومُسْلِمة، وليستْ فرض كفاية، ولا بدَّ من التَّدرُّج في مراتب معرفة الله ﷻ، والانتقال من المعرفة العقلية العِلْمية المبنية علىٰ الدَّليل والبرهان إلىٰ المعرفة الذَّوقية الشُّعورية الوجدانية، فإذا وَقَفْنا عند المعرفة العقلية فإنَّ معرفتنا بالله تبارك وتعالىٰ تكون ناقصة، ولذلك ترىٰ أنَّ رغبتنا في الله قليلة، وشوقنا إليه مفقود، وحُبُّنا إليه ليس بشديد، ولنْ نُحَقِّقَ في أنفسنا العبودية لله ﷻ إلاَّ بسلوك طريق التَّربية الرُّوحيَّة للانتقال إلىٰ المعرفة الإيمانية الذَّوقية التي أشار إليها النَّبيُّ ﷺ حيث قال: «**ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجَدَ حلاوةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّهُ إلاَّ لله، وأنْ يَكْرَه أنْ يعودَ في الكُفْر كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَف في النَّار**»[1].

ولكي تعرِف أنَّك تحبُّ اللهَ ورسولَه، وأنَّ حُبَّهما أحبَّ إليك ممَّا سواهما، يجب أن يكون عندك فِقْه المقارنة، فعندما تجد نفْسَك تائهة في واد من أودية الدُّنيا، أو لاهية بمشاغل من مشاغلها، أو واقفة مع حظوظها، أو تترك أوامرَ الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ لأغراض أخرىٰ، فاعلم عندئذ أنَّها تدَّعي محبَّة الله كذبًا، ويجب عليك أن تردَّها عن ذلك وتعود بها إلىٰ محبَّة الله ورسوله، لأنَّ المُحِبَّ وَلْهَانٌ، والْوَلْهَانُ شاطحٌ وعاشقٌ لا يعرِف الالتفاتَ إلىٰ غير الله، وطبيعة المُحِبِّ أنَّه لا يلتفت إلىٰ غير محبوبه وربِّه، وهذا حال المُحِبِّ الصَّادق وصفاته، وكلُّ مَن لم تكن فيه هذه الصِّفات فهو في الْحُبِّ مُدَّعٍ ومُفْتَرٍ كذَّاب، وهو بعيد عن مقام المحبَّة، ويرىٰ المحبَّة من بُعْد فيظنُّ أنَّه مُحِبٌّ والشَّوَاهِدُ تُكَذِّبُه، والفرْق شاسعٌ بين من يتشدَّق بالمحبَّة وبين من يصطلي بنارها، وشتَّان بين مُشَرِّقٍ ومُغَرِّبٍ.

(1) رواه البخاري ومُسلم والتِّرمذي وغيرهم، واللَّفظ للبخاري.

قال العارف بالله ابن عجيبة رحمه الله في تفسيره: «﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي أحفظهم منه، وهو تصريح بعد إشعار للتَّأكيد، ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ إياها، ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي صلاحًا مصححًا لدخول الجنَّة في الجملة، وإنْ كانوا دون صلاح أصولهم، ومن عطف على ضمير ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾ أي وأدخل معهم هؤلاء ليتمَّ سرورهم ويتضاعف ابتهاجهم».

إذا تحقَّقت التَّوبة إلى الله ﷻ، وسلك التَّائب سبيل ربِّه القويم، فإنَّ الله الكريم يجود عليه بالمغفرة، ويستجيبُ لدعاء الملائكة الكِرام البرَرَة، ويقبلُ توبة التَّائبين، ويغفرُ ذنوبهم، ويصفحُ عنهم صفحًا جميلاً، ويقيهم عذابَ الجحيم، ويُبعِدُهم عنه فضلاً منه وتَكَرُّمًا وهو الكريم ذو الفضْل العظيم، ولكن على المؤمن أنْ يحافظ على هذه التَّوبة ويُلازمها ويَثْبُتُ عليها إلى آخر رَمَقٍ من حياته.

وكفى بالتَّوبة شرفًا على شَرَفٍ أنَّ الحقَّ ﷻ قال في حقِّها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]، وقول الله ﷻ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [غافر: 8] يدلُّ على أنَّ من تمام سعادة المؤمِن إذا تفضَّل عليه المولى تبارك وتعالى وأدخله الجنَّة أن يكون معه أبواه وأهله وذريَّته، وقال سعيد ين جبير: «يَدْخُلُ الرَّجلُ الجنّةَ فيقولُ: أين أبي؟ أين أمِّي؟ أين ولدي؟ أين زوجتي؟ فيُقال له: لم يعمَلُوا مِثْل عملِك، فيقول: كنتُ أعمَلُ لي ولهم، فيُقالُ: أدخلوهم الجنَّة، ثُمَّ قرأ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾»[1].

إنَّ الله تبارك وتعالى رحيمٌ بعباده، ومن تمام كرمه وفضله على عبده المؤمن أن يُدخِلَه الجنَّة ويُشَفِّعه في أبويه وأهله وذريَّته حتَّى تقرَّ عينُه، ويتمُّ سروره، وتَكْمُلُ فرحتَه، وهنا نقف مع عِظَة بالغة وعِبرة هامَّة، وهي أنَّ المؤمِنَ عندما يتوب

(1) ذكر هذا الطَّبري والبغوي وابن عجيبة في تفاسيرهم.

إلىٰ الله ﷻ ويُصلِحُ قلبه وأعماله وأحواله ويكون صادقًا مع ربِّه تقيًّا طاهرًا، فإنَّ الله ﷻ يُكرمه أوَّلاً بالمعيَّة، ويُكرِمُه بأن يقيه عذاب الجحيم ويُنْجِيه من عذاب النَّار، وهذه الكرامة الثَّانية، وبعد ذلك يُكرِمُه الله ﷻ بالكرامة الثَّالثة جنَّة الخلود والاستقرار، ويسدلُ عليه ثوب رِضاه فلا يَسْخَط عنه أبدًا.

وأمَّا الكرامة الرَّابعة فإنَّ المولىٰ تبارك وتعالىٰ يُشَفِّعُ المؤمِن في أبويه وأهله وذرِّيته لتقرَّ عينُه ويَتُمُّ سرورُه، وتلك هي السَّعادة العُظمىٰ، ومن حقِّنا أنْ نحقِّق السَّعادة في أنفسنا، ولن يتُمَّ لنا ذلك إلاَّ بأمرين اثنين، وكلا الأمرين ليس من الدُّنيويات، وهما: تعظيمُ جلال الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والشَّفقة علىٰ خَلْقِ الله، لأنَّ السَّعادة الحقيقيَّة هي التي تشمل العبادة والمعاملة، وكما جاء في الخبر: «**إنَّما الدِّين المُعَامَلة**».

قال العالم الفاضل ابن عجيبة رحمه الله في تفسيره: «﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الغالِبُ الذي لا يمتنع عليه مقدور، وأنت مع مُلْكِكَ وعزَّتك لا تفعل شيئًا خاليًا عن حِكْمة، وموجِبُ حِكْمتك أن تفي بوعدك، ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي جزاء السَّيِّئَات، وهو العذاب، أو المعاصي في الدُّنيا، ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾، أي ومن تقه عِقاب السَّيِّئَات فقد رحِمته، أو من تقه المعاصي في الدُّنيا فقد رحمته في الآخرة، وكأنَّهم طلبوا لهم السَّبب بعد ما طلبوا المُسَبِّب، ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلىٰ الرَّحمة المفهومة من رحمته أو إليها وإلىٰ الوِقاية، أي ذلك التَّوقِّي هو الفوز العظيم الذي لا مطمع وراءه لطامع».

أي أنَّك يا ربّ أنتَ القويُّ لا تُغْلَبُ علىٰ أمرك أبدًا، والحكيم الذي عنده كلّ شيء بحكمة ويضع الأشياء فيما تليق، لأنَّ الحِكمة تقتضي ذلك، ومن إكرام المولىٰ تبارك وتعالىٰ لعباده المؤمنين الصَّادقين أنَّه يقيهم في الدُّنيا الأقوال البذيئة والأفعال القبيحة والأحوال الظُّلمانية والمعاملات الفاسدة التي يستوجبون بها دخول النَّار يوم القيامة، وإذا وقاك الله ﷻ من الوقوع في المعاصي، ومن اقتراف الذُّنوب

في الدُّنيا، فإنَّه لا شكَّ سيرحمك في الآخرة، وتكون من الفائزين الذين فازوا فوزًا عظيمًا، وأصابهم فضلٌ من الله الكريم، ونالوا السَّعادة الأبدية.

لأنَّ السَّعادة ليستْ هنا، بل السَّعادة عند ربِّك، والخير عند مولاك، فعليك بالعروج بروحك إلىٰ الله، وكُنْ معه، ولا تنْعزِل عنه أبدًا، وكنْ له شاكرًا علىٰ نِعَمِه، ودَعْكَ من الالتفات إلىٰ غيره، وكنْ له عبدًا صِرْفًا فهو يكفيك كلَّ ما أهمَّك، وهو القائل ﷻ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 36].

وفي هذا القدر كفاية، وإلىٰ لقاء آخر إن شاء الله، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالَمين.

الدَّرس الرَّابع عشر[1]

إشَارَاتٌ دقِيقَةٌ مُقْتَبَسَةٌ من آيات قرآنية كريمة

بعد تلاوة مُباركة عطِرة لأحد المقرئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص]، قال الشَّيخ الجليل عليّ تابعيّ بن الصَّادق رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمد لله ربِّ العالَمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمُرْسلِين، وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليمًا، **أمَّا بَعْدُ**:

يقول الله ﷻ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: 1، 2].

قال العالم الفاضل ابن عجيبة رحمه الله في تفسيره: «رُويَ أنّ هذه السُّورة بأسرها نزلتْ في بني النَّضير، وهم رهْطٌ من اليهود من ذرِّية هارون عليه السلام نزلوا المدينةَ في فِتن بني إسرائيل لبعثته ﷺ، وقيل: هم بقيَّة الحبْرَيْن اللَّذين كانا مع تُبَّع، فنزلا المدينة انتظارًا له ﷺ وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ حين قدِم المدينةَ صالَحَهُم علىٰ أن لا يكونوا عليه ولا له، فلما ظهر يوم بدر قالوا: هو النَّبيُّ الذي نعْتُه في التَّوراة لا تُرَدُّ له راية، فلمَّا كان يومُ أُحُد ما كان ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبًا فحالف أبا سفيان عند الكعبة علىٰ رسول الله ﷺ، فأمر (عليه الصَّلاة والسَّلام) محمَّد بن مسلمة الأنصاري في فتية فقتل كعبًا غيلة، وكان

(1) درس ألقاه الشّيخ الجليل عليّ تابعي بن الصّادق الحسنيّ الشّريف في 2008م، بزاوية مدينة عنابة.

أخاه من الرِّضاعة، وقد كان (عليه الصَّلاة والسَّلام) اطَّلَع منهم علىٰ خائنة ونقْضِ عهد حين أتاهم ومعه أبو بكر وعمر وعلي ليستعينهم في دِيَّة الرَّجليْن اللذين قتلهما عمرو بن أميَّة الضّمري خطأ فأجابوه علىٰ ذلك، وأجلسوه تحت الحِصْن، وأمروا رجلا منهم أن يطرحَ علىٰ النَّبيِّ ﷺ رحًىٰ، فنزل جبريل عليه السلام فأخذ بيده وأقامه، فرجع إلىٰ المدينة وأمر المُسلِمين بالخروج إلىٰ بني النَّضير وهم بقرية يُقال لها: زهرة، فأمرهم النَّبيُّ ﷺ بالخروج من المدينة، فاستمهلوه عشرة أيَّام ليتجهزوا للخروج، فدسَّ إليهم عبد الله بن أُبيٍّ وأصحابه من المنافقين: لا تخرجوا من الحِصْن، فإنْ قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن خرجتم لَنَخْرُجَنَّ معكم، فحصَّنوا أسوارهم، فحاصرهم النَّبيُّ ﷺ إحدىٰ وعشرين ليلة، وأمر بقطع نخلهم، فلمَّا قذف الله في قلوبهم الرُّعْب وأيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصُّلْح، فأبىٰ عليهم إلاَّ الجلاء علىٰ أن يحمِل كلُّ ثلاثة أبيات علىٰ بعير ما شاءوا من متاعهم، وللنَّبيِّ ﷺ ما بقي، فخرجوا إلىٰ الشَّام، وإلىٰ أذرعات وأريحا إلاَّ بيتين آل أبي الحقيق وآل حُيَيّ بن أحطب فإنَّهم لحِقوا بخيبر، ولحِقت طائفة بالحيرة، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ [الحشر: 2] بالمدينة، أي هو الذي تولَّىٰ إخراجهم لا بسبب فيه لأحد غيره».

وقال العارف بالله ابن عجيبة رحمه الله: «الإشارة ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ نزِّه الله تعالىٰ من وجود الغيرية والإثنينية ما في سموات الأرواح من علوم الأحدية، ونزِّهه ما في أرض النُّفوس والعقول من البراهين القطعية عن الشَّبيه والنَّظير».

إنَّ الله سبحانه وتعالى مُنَزَّهٌ علىٰ أن يكون له شريك أو ندٌّ أو مماثل يُماثِله، وهو وحده الموجود، وما سواه في الحقيقة معدوم ومفقود، ولماذا كان الغير معدوما وما دون الله مفقودًا؟ لأنَّ وجود كلَّ ما سوىٰ الله ثابت بإيجاد الله، ونِعَم الله عز وجل تَتَنَوَّع إلىٰ ثلاثة أصناف وهي: نِعْمَة الإيجاد، ونِعْمة الإمْداد، ونِعْمة الإعْداد، وكلُّ مِنَّا أوجده الله سبحانه وتعالى من عَدَم ورزقه من عُدْم، وهو الآن يمدُّه بالوجود، ولولا هذا الإمداد من الله ما وُجِد خَلْقٌ علىٰ وجه الأرض، ومن هنا نقول: أنَّ الله موجود وحده، لأنَّ

كلَّ ما في الإنْسان ليس ملكًا له، بل ملك لله ﷻ، فالله تبارك وتعالىٰ خَلَقَ لك مثلاً يدين ولكنَّك لا تملِكهما، بل هما مسخَّرتان مِن قِبل الله لخدمتك، ويقومان بمُهِمَّة عظيمة جليلة القدْر، وأنت تظنُّ أنَّهما يداك، وأنَّهما يقومان بدورهما لخدمتك حسب شهواتك، وهذا خطأ.

لأنَّ اليدين مأمورتان بخِدمتك، ومُسخَّرتان لذلك بأمر من الله تبارك وتعالىٰ، ولذلك يشهدان علىٰ الإنسان بما فعل بهما من مخالفات للأوامر، ويشهدان عليه بما فعل بهما من خير، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24].

ويقول الحقُّ تبارك وتعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: 20، 21].

قال العالم الفاضل ابن عجيبة رحمه الله: «والعارِفُ الكاملُ هو الذي يجمع بين التَّنزيه والتَّشبيه في ذات واحدة وفي دفعة واحدة، فالتَّنزيه من حيث ذات المعاني، والتَّشبيه من حيث الأواني، أو التَّنزيه من حيث الجمع، والتَّشبيه من حيث الفرق، أو التَّنزيه من حيث اسمه الباطن، والتَّشبيه من حيث اسمه الظَّاهر، ولعلَّ هذا هو المقصد الذي رامه العالم الصالح الجيلاني حيث قال في عينيته:

وإيَّاك والتَّنْزِيهُ فهوَ مُقيّد وإيَّاك والتَّشبيه فهو مُخَادع»

إذن فالله ﷻ مُنَزَّهٌ عن الغيريات، والعارِف الكاملُ هو الذي يجمع بين التَّنزيه والتَّشبيه في آن واحد، ونحن مهما حاولنا أن نُنَزِّه الله ﷻ فإنَّنا سنقع في التَّشبيه لأنَّنا ناقصون، والنَّاقِصُ مهما نزَّه الكامِلَ يجد نفسه قد وقع في التَّشبيه، وإذا وقع في التَّشبيه يجد نفسه قد عاد إلىٰ التَّنزيه في نفس الوقت.

وفي الآيات السَّابقة إشارة إلىٰ أنَّ الحقَّ ﷻ هو الذي يتولَّىٰ إخراج الخواطر الرَّديئة والخبائث من القلب، وأنت لا تستطيع أنْ تدفع عنك الأوهام النَّفسيَّة والظُّنون والشُّكوك، وإنّما عليك أن تعلو بنفسك وتفرَّ إلىٰ ربِّك فِرارًا كاملاً، وهو

وحده ﷻ الذي يُخْرِج تلك الظُّلمات من قلبك، وإذا كنتَ له كان لك ونصرك وأخرج من قلبك الخواطر الرَّديئة، وقد كنتُ تظنُّ أنْ لا تَخْرُجَ تلك الأوصاف الذَّميمة من قلبك، وحقيقة أنت لا تقدِرُ علىٰ إخراجها لتَمَكُّنِها من نفْسك، ولأنَّها استولتْ علىٰ قلبك، ولكنَّك إذا التجأتَ إلىٰ مولاك بصِدْق فهو الذي يتولَّىٰ تطهير قلبك ممَّا علِق به من الرَّذائل والصِّفات الذَّميمة التي تكون سببًا في قطع الصِّلة بين العبد وربِّه.

وقد يتحصَّنُ الإنسان بالعوائد التي تعوَّدها كحُبِّ الرِّياسة وحُبِّ الجاه، وحبِّ المال والشَّهوات، وكمخالطة الأحباب الذين يُحبُّهم لنفْسِه وليس لله، وكلُّ هذه الأمور يعتني بها المرء ويتَّكِلُ عليها، ويظُنُّها حصونًا مانعة يتحصَّن بها وتمنعه من الله، وهذا غير ممكن، غير أنَّ الحقَّ ﷻ من فضله وكرمه عليك يُخرِج من قلبك الخواطر الرَّديئة والحظوظ الدُّنيوية والشَّهوات النَّفْسية من حيث لا يخطر ببالك، حيث يُقَيِّض الله ﷻ أحدًا من العارفين ليُنْقِذك من هذه الحُجُب النَّفسية، ويطهِّرَ قلبك من الخبائث، ويرفعَ همَّتك إليه، فلا تستبعدْ أن يُنقِذَك مولاك من شهوات نفسك، ويُزِيحَ الغفلة عن قلبك، لأنَّ الله ﷻ غالِبٌ علىٰ أمره، وقد قال العالم الجليل ابن عطاء الله رحمه الله في إحِدَىٰ حِكَمِه: «من استغرَبَ أن يُنْقِذَه اللهُ مِن شهْوته، وأن يُخرِجَه من وجُودِ غفْلتِه، فقد استَعْجَزَ القُدْرة الإلهية، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: 45].

إنَّ التَّخَلُّص من الحُجُب النَّفسيَّة لا يتمُّ بدون تربية النَّفس وتزكيتها وتطهيرها من كلِّ الرذائل وتحليتها بسائر الفضائل، ولا يُمكن للمرء أن يصِل إلىٰ هذا بمفرده، بل لا بدَّ له من سَنَدٍ من العُلماء الصَّالحين يُرِيه مسالك الخروج من هذه الوضعيات، ولا بدَّ للسَّالك من رفيق يرافقه في سلوكه ويتدرَّج معه في التَّربية، ويُجنِّبُه مهالك الطَّريق ومزالقهِا، وقد ورد أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**التَمِسُوا الرَّفيقَ قبل الطَّريقِ والجارَ قبل الدَّار**»[1].

(1) رواه الطّبراني في الكبير، كما جاء في كشْف الخفاء.

إذن إذا قيَّض الله ﷻ لك شيخًا عارفًا، وقذف الحقُّ ﷻ في قلبك خوفًا مُزْعِجًا أو شوقًا مُقْلقًا، فسيخرج من هذا القلب ما علِق به من الخواطر والشَّهوات قهرًا، لأنَّ القلب لا ينفعه إلاَّ خوف مُزعج يُزلزل كيانه، أو شوق مُقْلِقٌ، أي محبَّة عظيمة لله ﷻ تُخْرِجُه من أحوال نفْسِه، وتزجُّ به في حضرة ربِّه، والله سبحانه يُقَيِّض لك مشايخ التَّربية والإخوان في الله لينصحوك ويُوَجِّهوك، فيتطهَّر قلبك من الخبائث، لأنَّك عندما تُجالس طاهرًا فإنَّك تتطهَّر بمجالسته، وإذا جالسْتَ مَن هو علىٰ غير طهارة فإنَّك تَتَنَجَسُ بنجاسته، وإذا صحِبْتَ مُغتابًا فإمَّا أن تصير مُغتابًا مثله أو تسمع منه غيبة ونميمة، أي أنَّك ستقع لا محالة في رذيلة من الرَّذائل.

وإذا جالستَ ذَاكِرًا فإنَّك ستقتدي به، وتأخذ منه صِلة بربِّك وتذكيرًا بمولاك، وبصُحبتك للصَّالحين تتهذَّب أخلاقُك، وتتزكَّىٰ نفْسُك، ويصفو باطنُك ويتنوَّر قلبُك، ويمتلئ بالطُّمأنينة والسَّكينة، وحينئذ تتوجَّه إلىٰ ربِّك توجُّها كُلِّيًا، وتُحقِّق العبودية في نفْسك لله جلَّ جلاله، ولا تلتفِت إلىٰ ما سِواه علىٰ الإطلاق، وترتدي لباس التَّقوىٰ، وتتحلَّىٰ بالأخلاق الكريمة، وتتزيَّن بالفضائل والخِصال الحميدة، فبعد أنْ كنتَ تتزيَّن للنَّاس أصبحتَ تتزيَّن لله فرحًا بدِين ربِّك وابتهاجًا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ورغبة فيما عنده وتحقيقًا للعبودية في نفسك له.

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ المرء قد يُزيِّنُ ظاهره ولكنَّ باطنه باقٍ علىٰ خبائثه، وهذا يُعَدُّ غِشًّا وخيانة وفسادًا في سلوك العبد، ومن تطهَّر من الرَّذائل والخبائث أصبح قلبه عامرًا بالعلوم والمعارف، والإنسان يكتسِبُ العلوم والمعارف من خِلال مجالسة العلماء وقراءة الكتُب، ولكن هناك علومًا أخرىٰ لا يصِل إليها أحد إلاَّ عن طريق التَّقوىٰ، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [البقرة: 282]، وكلُّ من اتَّصف بالتّقوىٰ تولَّىٰ الحقُّ ﷻ إمداده بالمعارف والعلوم، فعندما تُطَهِّر قلبك من كلِّ الشَّوائب والأغراض ومن كلِّ الحظوظ والشَّهوات، يُصبِح مددُك من الله مباشرة، وهذا ما يُسمىٰ في الشَّريعة

بالعِلْم اللَّدُنِّي، وقد قال الله ﷻ في كتابه الكريم: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65].

وما معنىٰ تقوىٰ الله؟ تقوىٰ الله ﷻ تعني أن تُخْرِجَ من قلبك كلَّ ما سِوىٰ الله، ولا تترك في قلبك غير سيِّدك ومولاك وحده لا شريك له، وهكذا تكون له عبدًا صِرْفًا، وها نحن الآن موجودون علىٰ وجه الأرض، والسَّماء فوقنا، وتحيط بنا الجِهات الأربعة، فلمَن هذه الأرض التي أنتَ عليها؟ هي لله، ولمن السَّموات التي فوقك تُظِلُّك؟ هي لله، ولمن هذه الجِهات الأربعة التي تُحيط بك؟ هي لله، وأنتَ لمن؟ إنَّك لله، فعندما تُحِسُّ بهذا الشُّعور وينتابك هذا الإحساس، فَسَتُقِرُّ بأنّك عبد لله رغم أنفك، ولا تشعر بالانعزالية عن مولاك الكريم الذي يرعاك ويُدَبِّر شؤونك.

لأنّ مُصيبتَنا نحن إذا انتقلنا إلىٰ معاملة الأهل والأولاد والأموال والأعمال، انعزلنا عن ربِّنا، وكأنَّنا في أرض غير أرض الله، وتحت سماء غير سمائه، وفي جهة ليستْ من جهاته، وببدن غير البدن الذي خَلَقَهُ، وبروح غير الرُّوح التي نفخها فينا، وأين الغيرية التي تراها؟! فلا وجود للغيرية، ولكن يجِب أن تشعُرَ بهذا وتعيشه، وفي الحقيقة أنَّ إمدادات الله ﷻ تُحيط بك ويُمِدُّك بها في كلِّ حين، وقد أنعم الله عليك بنِعم جليلة القدر لا تُعدُّ ولا تُحصىٰ وهو القائل: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]، ويقول الحقُّ ﷻ في آية أخرىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 18].

ومن النِّعم التي أنعم بها الله ﷻ عليك أنَّه خَلَقَ لك الجوارح وجعلها مُسَخَّرة لك طائعة، فقد أعطاك مثلاً رجلين وأمدَّهما بالقدرة علىٰ المشي، وأنت تمشي بهما حيث تشاء، ولو أراد الحقُّ ﷻ أن يُوقِفُهما علىٰ الحركة لفعل، بدليل أنَّك ترىٰ أناسًا لا يقدرون علىٰ المشي والحركة، ولم يُجْدِهِم طبيبٌ ولم ينفعهم دواء، وكأنَّ الله جلَّ جلاله يقول لك: احذر أن تُخطئ وتنسبَ رجليك إلىٰ

نفسك، فإنَّهما مِلْك لي أنا، وأنا الذي خلقتهما لك وأمددتُهما بالقوَّة لتستطيع المشي والسَّير بهما، وتستعملهما في كلِّ مصالحك، فكنْ لي في مشيك ولا تكن لغيري، وهكذا بالنسبة لكلِّ الجوارح، ولذلك يتعيَّن عليك أن تشعرَ بهذا الشُّعور عندما تستعمل أي جارحة من جوارحك، ولا ينبغي عليك أن تنعزل عن ربِّك في كلِّ حركاتك وسكناتك.

وللأسف الشَّديد أنَّ البعض عندما يخرج من المسجد يشعر بأنَّه انعزل عن الله، وعليه أنْ يفعل ما يريد ويتصرَّف كما يشاء، وهذا خطأ فادِح، لأنَّه مطلوب منك أنْ تشعر عندما تخرج من المسجد أنَّك قد خرجتَ منه إليه، ولذا قال رسول الله ﷺ كما روِّي عنه: «**إنَّما الدِّينُ المُعامَلة**»، فأنت تتعامل مع غيرك وفق ما أمرك الله ﷻ به، وينبغي أنْ تشعر بمعيَّة ربِّك حيثما كنتَ، ولا تنعزل عليه أبدا سواء كنتَ في بيتك أوفي عملك أو في سوقك، فعندما تشتري مثلاً فاكهة كالتَّفاح أو الرَّمان أو العِنب فإنّك تظنُّ أنَّك تدفع ثمن هذه الفواكه، وهذا غير صحيح، بل أنت تدفع حقوق الباعة من النَّاس وأجورهم وثمن أتعابهم.

وأمَّا تلك الفواكه فإنَّها لا تُشْتَرَىٰ من الخَلْق، لأنَّها من صُنْع مولاك وليستْ من صُنْع البشر، ولو أنَّ الله ﷻ لم يُرِدْ للأشجار أنْ تحمِل بالثِّمار وتُنتِجها، فهل يستطيع أحد أن يجلِب لك ثمارًا فتشتريها منه؟ لا، لن يقدِر أحد علىٰ ذلك، ولذا فإنَّ هذه الثِّمار والفواكه لا تُشْترىٰ من الخَلْقِ، وإنّما أنت تشتري حقَّ عمل الباعة وجهدهم المبذول، وأنت تدفع ثمن عملهم وليس ثمن التُّفاح والرُّمان والعِنب، لأنَّ الإنسانَ لا يقدِر أن يصنع ثمارًا وفواكه، والبائع إنَّما يأخذ منك ثمن أتعابه ومقابل الجهد الذي بذله حيث جاء بالنِّعم الإلهيَّة ووضعها في متناولك، وقال لك: أعطني ثمن عملي[1]، وهذه الثِّمار ليستْ من صُنْع ذلك البائع، وهل يبيع أحد شيئًا لم يصنعه؟!

(1) وهنا يبتسم الشّيخ الجليل علي تابعي. (جامع الكتاب ومدونه).

فإذا أمعنَّا النَّظر جيِّدًا أدركْنا أنَّ تلك الفواكه والثِّمار لا تُقَدَّر بثمن، وإنَّما هي نِعمة من الله ﷻ أنعم بها عليك، وجعل لكلِّ فصْل فاكهة وثمارًا خاصَّة به، وهذا إكرام من المُتَكَرِّم وفضل من المتفضِّل وإنعام من المُنْعِم الكريم المنَّان، وهذا هو الشُّعور الذي ينبغي أن ينتابنا في كلِّ المعاملات، ولقد قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: 9، 10].

وقد فهِم البعض أنَّ علينا فعل ما نشاء بعد خروجنا من الصَّلاة، وهذا غير صحيح، لأنَّ المقصود من الآية الكريمة السَّابقة أنَّ الله يقول لنا: انتشِروا في أرضي أنا، أي أنَّ الأرض التي تنتشِرون فيها هي أرضي وليستْ أرض أحد غيري، وأنت عندما تمشي في أرض أحد فإنَّك تكون حَذِرًا خوفًا من أن يغْضِب عليك صاحبها، وإذا فعلتَ علىٰ أرضه أمرًا لا يليق فإنَّ صاحب تلك الأرض لا يرضىٰ عنك، ويُوقِفك عند حدِّك ويقول لك: هذه أرضي ولا يليق بك أن تتصرَّف فيها تصرفات لا أرضىٰ بها ولا تروق لي.

وفي الحقيقة فإنَّ الأرض لله ﷻ جعلها في يدك وأمَّنك عليها لتقوم بما كلَّفك به، والله تبارك وتعالىٰ خَلَقَكَ وجعل لك موهِبة من مواهبه لتصير فلَّاحًا أو نجَّارًا أو حدَّادًا أو بنَّاء أو أستاذًا، وهذا من جملة الإعداد، وقد أعدَّك الله وأعدَّ لك ما يلزمك في حياتك، ولو شعرنا نحن بأنَّ الإعداد في أي مجال من المجالات كالعمل إنَّما هو من الله، فهل يُمكِن أنْ نعْصيَه ونخالف أوامره ولا نجتنب نواهيه؟ لا، لا يُمكِن ذلك أبدًا، بل نشعرُ في كلِّ الحالات بأنَّ الله معنا، وهو القائل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: 4]، وهو القائل أيضًا: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 3].

فالله ﷻ يعلَمُ سِرَّك ونجواك، ويعلمُ جهرَك وعلانيتَك، فإذا كان لديك هذا الشُّعور فأنت في معيَّة الله، وإذا كنتَ في معيَّةِ ربِّك فلن ينتابك همٌّ، ولن يعتريك

حُزْنٌ، ولن يحلَّ بساحتك غمٌّ، لأنَّك في معيَّة الله مأمونٌ، ولا أحد يجرؤ علىٰ القُرب منك ما دامت تلك المعيَّة تبسط رداءها عليك.

وإنَّما يجرؤ عليك الآخرون إذا كنتَ مُنْعَزِلا عن ربِّك، لأنَّك فقدتَ النَّصير، وأوكلك الله إلىٰ نفْسك، وتتعسَّرُ عليك الأمور ولا تتيسَّرُ لك، ولهذا قال الحقُّ ﷻ: «﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: 8-10]، فاتقَّ الله وكنْ في معيَّته يكُنْ لك ناصرًا ومُعِينًا، ويُيَسِّر لك كُلَّ أمورك، وقد قال العالم فاضل ابن عطاء الله رحمه الله: «ما توقَّفَ مَطْلَبٌ أنتَ طالبُه بربِّك، ولا تيَسَّر مطلبٌ أنتَ طالبُه بنفْسِك».

إذن أنت موجود بإيجاد الله ﷻ لك، ولا وجود لك مُسْتقِلاً عن وجود الله، وكلُّ النِّعم من إمداداته وعطاءاته، فهذه عينك مثلاً ترىٰ بها وتُبصِر وتُميِّز بها الألوان، فمَن أعطاك هذه النِّعمة؟ هل أعطاك هذه النِّعمة ومنحك إياها أقرب النَّاس إليك أبوك أو أمُّك؟ لا، فإن نِعمةَ البصر من الله، والمدد واصل من الله للعينين لكي ترىٰ بهما وتُبصِر، وكان المفروضُ أنَّ كلَّ النِّعم التي تتنعَّم بها تعود بك إلىٰ ربِّك وتُذكِّرك به، ولكنَّك تتذكَّر الأهل والأولاد، وتشعر بأنَّ تلك النِّعم مستقلَّة عن الله، وأنت كذلك مُنْعَزِلٌ عنه ومُسْتَقِلٌّ، وهذا جحود لله يتنافىٰ مع التَّوحيد.

ولا بدَّ علىٰ الإنسان أن يستعملَ فكره ليتَّعِظ ويعتبِر، والله ﷻ يقول: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: 2]، وقد قال العارف بالله ابن عطاء الله رحمه الله: «الفِكْرة سِراجُ القلبِ، فإن ذهبتْ فلا إضاءةَ له»، وقيل: «الفقيرُ بلا فِكْرة كالخيط بلا إبْرَة»، والمفروض أنَّ الإنْسان يجب عليه أن يشعُرَ بنِعَم الله عليه وبمدد ربِّه الواصل إليه، ليزداد حمدًا وشُكرًا وعبادة وتقوىٰ وتقرُّبًا لله تبارك وتعالىٰ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وعلينا أنْ نقتديَ بمَن تجرَّدوا من المادِّيات وعشِقوا ربَّهم، وأحَبُّوه وأطاعوه، وابتعدوا عن مخالفته وامتثلوا أوامره.

ولكنَّ الشَّيطانَ يُشغِلنا بالأهل والأولاد والأموال، ولكن هذه الزَّوجة مثلاً التي أنتَ مُتعلِّق بها ومُبتعِدٌ بسببها عن ربِّك، إنَّما هي أمة لله، وهو الذي خَلَقَهَا

لك وزوَّجك إيَّاها، وهي في الأزل زوجة لك وأنت زوج لها، فكيف تحتجبُ بها عن مولاك وتنساه؟! وليس من اللاَّئق أن تُنْسيك النِّعمُ الحقَّ جلَّ جلاله الذي أنعم بها عليك تفضُّلا وتكرُّمًا منه، فهو ذو الفضْل العظيم والكريم المنَّان، ولو فكَّر أحدُنا قليلا لعَلِم أنَّ اللهّ ﷻ لم يخلُقْنَا عبثًا، وهو القائل تبارك اسمه وعظُمَتْ صِفاته: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115]، والله ﷻ خَلَقَك لحِكْمة يعلمُها، وذلك لتكون له عبدًا، فهل تكون عبدًا له حينًا من الوقت وتتمرَّد على العبودية له أحيانًا أُخرىٰ؟

لاً، فإنَّ هذا لا يُمكِن، لأنَّك لا تستطيع الخروج عن هذه العبودية مهما حاولتَ، فأنت عبدٌ لربِّك الذي أمدَّك بكلِّ النِّعم، وسخَّر لك ما في الكون لخِدمتك لتكون له عبدًا، وتُحقِّق العبودية في نفسك له، فإذا عرفتَ هذا الأمر، فاثْبُت على المبدأ، فالشَّرف كلُّ الشَّرف أنْ تكون عبدًا لسيِّدك ومولاك.

وفي هذا القدر كِفاية، وإلىٰ لِقاء آخر إنْ شاء الله، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالَمين.